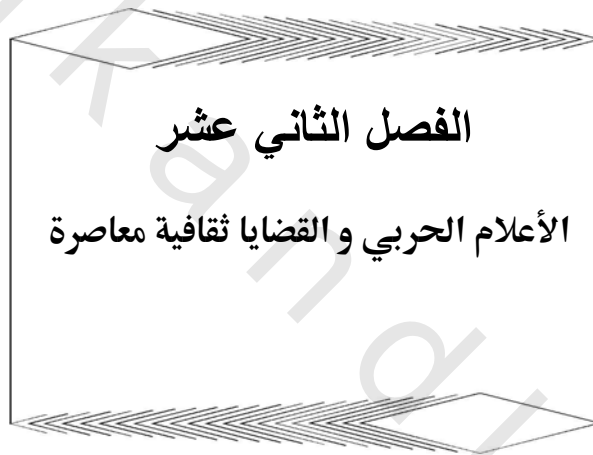




القضية الأولى: الوسطية معنى الوسطية:

في اللغة: الوسطية من الوسط، وهو ما يكون في الماديات بين طرفين متساويين في القدر والمسافة، وفي المعنويات ما بين صفتين مذمومتين، مثل الاعتدال في الإنفاق بين البخل والإسراف، ومثل الشجاعة بين التهور والجبن^(١).

وتعني أيضا الاعتدال، ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير: (وَسَطًا) في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ البقرة: ١٤٣ أنه قال: (عدلا)^(٢)، وتعني كذلك الخيار والأفضل، قال ابن كثير في تفسير الآية: (الوسط ههنا الخيار والأجود)^(٣)، وفي الحديث: (خير الأمور أوسطها)^(٤)، وكان (ﷺ) وسطا في قومه، أي أشرفهم نسبا، ومنه الصلاة الوسطى، أي أفضل الصلوات^(٥).

ويتبين من هذه المعاني أن الوسطية تعني الاعتدال بحيث لا يطغى جانب على جانب، ولا يحدث إفراط ولا تفريط^(٦).

الوسطية من خصائص الإسلام:

من حكمة الله تعالى أن جعل الوسطية شعارا للأمة الإسلامية التي هي آخر الأمم، وصفة لرسالة الإسلام التي ختم الله بها

(١) معجم الوسيط/١٠٣١.

(٢) رواه أحمد، المسند ٩/٣.

(٣) تفسير ابن كثير ١٩٠/١.

(٤) رواه ابن السمعاني في ذيل تاريخ لغداد بسند فيه مجهول عن علي (ﷺ) مرفوعا،

قال ابن الغرس: الحديث ضعيف. كشف الخفاء للعلوني ٤٦٩/١.

(٥) تفسير ابن كثير ١٩٠/١.

(٦) الحوار مع أهل الكتاب لخالد القاسم / ٣٣.

الرسالات، وبعث بها محمدا خاتم أنبيائه رسولا للناس جميعا، ورحمة للعالمين^(١)، وقد اتصف الإسلام باعتدال منهجه بين مناهج الأديان الأخرى إذ سلمت عقائده وأحكامه وأخلاقه من الغلو والتقصير.

ووسطية الأمة الإسلامية التي دل عليها قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ {البقرة: ١٤٣} تقتضي اتصافها بالصفات الآتية:

(١) صفة العدل التي هي ضرورة لقبول شهادة الشاهد فضلا عن قبول شهادتها على الأمم الأخرى.

(٢) صفة الاستقامة التي هي البعد عن الميل والانحراف ؛ لذا وصف الله تعالى دين هذه الأمة وهو الإسلام بالصراط المستقيم، وهو الواقع وسط الطرق الجائرة عن القصد، وقد هدى الله إليه الأمة الإسلامية بين الأمم التي سلكت الطرق المنحرفة^(٢)، قال تعالى:

﴿ أَهْدَيْنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝ ﴾ {الفاتحة: ٦-٧}.

(٣) صفة الخيرية التي هي مظهر التفضيل الذي أخرجت بها الأمة الإسلامية للناس، يدل عليه قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ۝ ﴾ {آل عمران: ١١٠}.

مظاهر الوسطية في الإسلام:

(١) مظهر الوسطية في الاعتقاد: تقع عقيدة الإسلام في موقع الوسط بين انحراف المنحرفين من أهل الأديان وأهل الأهواء، يقول ابن تيمية: (المسلمون وسط في التوحيد بين اليهود والنصارى؛ فاليهود تصف الرب بصفات النقص التي يختص بها المخلوق لما قالوا: إنه

(١) الخصائص العامة للإسلام ليوסף القرضاوي / ١٢٢.

(٢) تفسير أبي السعود ١/ ١٣٣.

بخيل، وإنه فقير، وإنه لما خلق السموات والأرض تعب،
والنصارى يصفون المخلوق بصفات الخالق التي يختص بها وحده،
ويشبهون المخلوق بالخالق لما قالوا: إن الله هو المسيح بن مريم،
وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا^(١)، وكذلك الحال في النبوات؛ فإن
المسلمين وسط بين اليهود والنصارى؛ (فاليهود تقتل بعض
الأنبياء، وتستكبر على أتباعهم، وتكذبهم وتتهمهم، والنصارى
يجعلون من ليس بنبي ولا رسول نبيا ورسولا، كما يقولون في
الحواريين إنهم رسل؛ بل يطيعون أحبارهم ورهبانهم كما تطاع
الأنبياء)^(٢).

والمسلمون يصفون الله تعالى بصفات الكمال، وينزهونه
سبحانه عن صفات المخلوقين، ولا يغفلون في نبيهم محمد صلى الله
عليه وسلم فيرفعونه إلى درجة الألوهية، ولا في أصحابه (ﷺ)
فيرفعونهم إلى درجة الرسل كما فعلت النصارى، وإنما يؤمنون
برسولهم محمد (ﷺ)، فيتبعونه ولا يغفلون فيه، اجتنابا لما نهاهم عنه في
قوله: (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم إنما أنا عبد
الله ورسوله)^(٣)، كما يعرفون لأصحابه (ﷺ) قدرهم، ويعطونهم حقهم
من غير غلو فيهم، ولا حط من شأنهم.

كما أن عقيدة الإسلام وسط بين عقيدة الخرافيين الذين
يصدقون بكل شيء من غير برهان، وبين الماديين الملحد الذين
ينكرون الغيب دون استماع لنداء الفطرة، ولا نداء العقل، ولا تسليم
بدلالة المعجزة، ذلك أن عقيدة الإسلام تقوم على الدليل القاطع والحجة
الصحيحة، وما عدا ذلك ترفضه، وتعدده من الأوهام^(٤) استنادا إلى قول

(١) منهاج السنة ١٦٨/٥.

(٢) منهاج السنة ١٦٩/٥.

(٣) رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب: **﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ**

مِنْ جِجْ شَرْقِيًّا﴾.

(٤) الخصائص العامة للإسلام لـ يوسف القرضاوي / ١٢٧.

الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿البقرة: ١١١﴾.

(١) **مظهر الوسطية في العبادة:** يتصف فرض العبادات في الإسلام بين الأديان بأنه عدل في منهجه من غير إفراط ولا تفريط، ووسط بين الشدة واللين؛ إذ يجد فيها المسلم ما يصلح حاله في معاشه ومعاده، ويستجمع منها خير دنياه وآخرته، فإن (كل من تأمل سنن الأديان في أقامة الشريعة، واعتبر وصفها بحسب الكمية والكيفية علم أنه لا سنة فيها أحسن في مقتضى العقل من سنة أهل الإسلام؛ أما من جهة الكمية فلأنه لم يطل فيمّل كصوم الرهبان من النصارى والصدّيقين من الثنوية وعبدّة الأصنام، ولم يقصر فيقل كصوم المجوس؛ إذ هو ليس بصيام على الحقيقة، أما من جهة الكيفية فإنه لم يجعله كصوم النصارى والثنوية الذين يعتقدون معه تحريم اللحم، ويسلطون على أنفسهم النحول كصوم اليهود المتفرق في أيام السنة على صورة لا يوجد لها نظام مستقر، ولا تعرف أوقاتها إلا خصائص علمائها^(١)، وهذا خلاف ما فرض الله تعالى من عبادات صلاة وزكاة وصوم وحج وغيرها من العبادات التي يتقرب بها إلى الله تعالى؛ فإن من تأملها وجدها في طاقة الإنسان وقدرته، يؤديها المسلم في يسر من غير حرج ولا كما يؤدي المسلم هذه العبادات عن علم وبصيرة وفق ما نزل به القرآن الكريم، وجاء به (ﷺ) من غير تكلف ولا ابتداع خلافا للنصارى الذي عبدوا الله ببدع ابتدعوها ما أنزل الله بها من سلطان، وخلافا لليهود الذين أعرضوا عن العبادات حتى في يوم السبت الذي أمرهم الله تعالى أن يتفرغوا فيه لعبادته سبحانه^(٢).

وكذلك الحال في عبادة أهل الأهواء الذين أضافوا من الرسوم والشعائر ما لم يشرعه الله تعالى، كما أعفوا أنفسهم من أداء بعض الواجبات والفرائض دون رخصة أو عذر، فكان في ذلك ضلال عن اتباع منهج الهداية؛ خلافا لأهل الحق الذين اتبعوا نبيهم (ﷺ) وتمسكوا بسنته، ورأوا في الزيادة أو النقصان ابتداعا في الدين ما كتبه الله عليهم

(١) الإعلام في مناقب الإسلام لأبي الحسن محمد العامري/١٤٢.

(٢) منهاج السنة لابن تيمية ١٧١/٥.

امثالاً لقول (ﷺ): (كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار)^(١)، وقوله (ﷺ): (من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد)^(٢).

(١) **مظهر الوسطية في الأخلاق والآداب:** فإنها في الإسلام وسط بين الغلاة الذين تخيلوا الإنسان ملاكاً معصوماً من الخطأ، وبين الواقعيين الذين تصوروا الإنسان حيواناً بهيماً؛ فأولئك أحسنوا الظن بالفطرة حتى اعتبروها خيراً محضاً، والآخرين أساءوا الظن بها حتى اعتبروها شراً محضاً^(٣)، والإسلام يخالفهم حيث رأى في الإنسان استعداداً للخير والشر، وأن لديه قدرة على تزكية نفسه كما أن الإسلام وسط في المأكولات يحل لأتباعه الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث؛ خلافاً للنصارى الذين لم يحرموا ما أحل الله فاستحلوا النجاسات والخبائث والميتة والدم ولحم الخنزير، وخلافاً لليهود الذين حرموا طيبات أحلت لهم^(٤).

كما أن الإسلام وسط في الأخلاق بين اليهود والنصارى، فقد أمر بالصفح خلافاً لأهل الكتاب فإن دين اليهود مؤسس على الانتصار المحض، ودين النصارى مؤسس على التذلل المحض^(٥).

اتباع منهج الوسط:

الوسطية هي منهج الحق ومسلك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم، وقد انحصر في منهج الرسول (ﷺ) الذي ختم برسائله جميع الرسائل، ونسخ بشريعته جميع الشرائع، وأصبح منهج أهل السنة والجماعة هو المنهج الوسط بعد ظهور الأهواء والافتراق، فعلى المسلم اتباع هذا المنهج القائم على الاعتدال، البعيد عن طرفي الغلو والتفريط، كما كان شأن سلف الأمة من الصحابة والتابعين (رضي الله عنهم)؛ فإنهم اتبعوا سنة الرسول (ﷺ)، وسلكوا مسلكه ودعوا إليه، يقول علي

(١) رواه النسائي في كتاب العيدين، باب كيفية الخطبة.

(٢) رواه مسلم في كتاب الأفضية، باب نقض الأحكام الباطلة.

(٣) الخصائص العامة ليويسف القرضاوي/١٣٠.

(٤) منهاج السنة ١٧١/٥.

(٥) الإعلام بمناقب الإسلام لأبي الحسن محمد العامري/١٤٢.

(ﷺ): (خير الناس هذا النمط الأوسط، يلحق به التالي، ويرجع إليه الغالي)^(١)، هذا النمط هو الصراط المستقيم الذي دعا إليه (ﷺ) وأصحابه (ﷺ)، ودعا إليه من سار على نهجه واتبع سنته، وهو يجنب صاحبه سبل الضلال التي يدعو إليها شياطين الإنس والجن؛ فعن ابن مسعود (ﷺ) قال: (خط (ﷺ) خطأ بيده. ثم قال: هذا سبيل الله مستقيماً. ثم خط عن يمينه وشماله. ثم قال: هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه)^(٢) ولما كان الغلو في المعتقدات والعبادات يدفع إلى التشدد في الدين نهى الله عنه أهل كما حذر منه (ﷺ) أمته منه بقوله: (إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم بالغلو في الدين)^(٣) وذلك لأن الغلو يخرج صاحبه عن منهج الوسط فيؤدي به إلى الهلاك.

القضية الثانية: الإرهاب

احتلت ظاهرة الإرهاب في الوقت الحاضر موقع الصدارة من اهتمام الباحثين؛ نظراً لاتساع دائرتها، وانتشارها في معظم أنحاء العالم، مما اقتضى بذل مزيد من الجهود العلمية في دراستها وتحليلها للتعرف على أسبابها ووسائل علاجها؛ لذا كانت ومنذ ثلاثة عقود مبعث قلق المجتمع الدولي، عبرت عنه الجمعية العامة للأمم المتحدة بقرارها رقم ٣٠٣٤ الصادر في ١٨ ديسمبر ١٩٧٢م، حيث أوصت الدول الأعضاء فيها بالبحث عن حلول عادلة وسليمة تسمح بإزالة الأسباب المؤدية إلى أعمال العنف^(٤)، وفي الوقت الحاضر ازداد الاهتمام بهذه الظاهرة بسبب تنامي الأعمال الإرهابية، وتباين أشكالها.

تعريف الإرهاب:

أ- في اللغة: مشتق من الفعل الثلاثي (رَهَبَ) أي خاف، والرهبة في أصل اللغة تعني الخوف والفرع^(٥).

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف رقم ٣٥٦٣٩، وإسناده جيد.

(٢) رواه أحمد ٤٦٥/١، قال محمود شاكر: إسناده صحيح.

(٣) رواه أحمد ٢١٥/١.

(٤) الإرهاب الدولي لمحمد عزيز شكري / ٢٤٠.

(٥) لسان العرب لابن منظور ٣ / ١٧٤٨.

وقد ظهرت كلمة رعب (Terreur) لأول مرة في اللغة الفرنسية عام ١٣٥٥م وجاءت من اللغة اللاتينية (Terreor) التي تعني الخوف والقلق المتناهي الذي يساوي تهديدا غير مألوف وغير متوقع بصورة واسعة^(١).

ب- في الاصطلاح: يصعب وضع تعريف جامع مانع نظرا لاختلاف نظرة الدول والمجتمعات إلى هذه الظاهرة وتشعبها وتنوع بواعثها وأهدافها، واختلاف الأطر المرجعية والقانونية التي يستند عليها في التعريف .

وبسبب عدم الاتفاق على تعريف اصطلاحي محدد كثرت التعريفات؛ لذا نكتفي منها بتعريف قانوني وآخر شرعي يوضحان المقصود به:

♦ عرفه مجلس وزراء الداخلية العرب بأنه: (كل فعل من أفعال العنف أو التهديد به أيا كانت بواعثه أو أغراضه يقع تنفيذا لمشروع إجرامي فردي أو جماعي، ويهدف إلى إلقاء الرعب بين الناس أو ترديدهم بإيذائهم أو تعريض حياتهم أو حريتهم أو أمنهم للخطر أو إلحاق الضرر بالبيئة أو بأحد المرافق أو الأملاك العامة الخاصة أو احتلالها أو الاستيلاء عليها أو تعريض أحد الموارد الوطنية للخطر)^(٢).

♦ عرفه المجمع الفقهي في مكة المكرمة بأنه: (العدوان الذي يمارسه أفراد أو جماعات أو دول بغيا على الإنسان في دينه وعقله ودمه وماله وعرضه، ويشمل صنوف التخويف والأذى والتهديد والقتل بغير حق وما يتصل بصور الحرابة وإخافة السبيل وقطع الطريق وكل أفعال العنف أو التهديد)^(٣).

(١) الإرهاب بين التجريم والمشروعية لإمام حسانين خليل ٣٣/.

(٢) اجتماع مجلس وزراء الداخلية العرب عام ١٤١٧هـ بتونس.

(٣) بيان المجمع الفقهي في مكة المكرمة ١٠/١/٢٠٠١م.

الإرهاب في الماضي والحاضر:

الإرهاب ليس جديدا في تاريخ الشعوب والمجتمعات، بل عرفته البشرية منذ تاريخها القديم، فهو ظاهرة قديمة ابتدأت بالإقدام على قتل النفس البريئة حين استباح قابيل قتل أخيه هابيل ظلما وعدوانا فكان من النادمين كما أخبر تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧)

لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَتَّقِي اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنَّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ بَيْتِي وَإِنَّكَ فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠)﴾ {المائدة: ٢٧-٣٠}، ويمكن عد الإرهاب المتمثل في قتل الأبرياء والاعتداء على الممتلكات وتدمير المنجزات الإنسانية والحضارية من قبيل التطرف العملي.

ومن الظواهر القديمة الغلو أو التطرف الديني الذي كان متفشيا في بني إسرائيل كما أخبر تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَحْدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١)﴾ {النساء: ١٧١}، فقد مارسه اليهود ضد النصارى عمليا من منطلق عنصري يقوم على فكرة أنهم شعب الله المختار، فكان ما أنزلوه بهم في عهدهم الأول شاقا وعظيما حين أباحوا دماءهم وأعراضهم وأموالهم، وعدوا ذلك نوعا من القربة إلى الله تعالى؛ بل حدد التلمود أنواعا من الطهر لا يصل إليها اليهودي إلا باستعمال الذبائح البشرية من النصارى، فوقعت أحداث عظيمة مدونة في كتاب الكنز المرصود (لروهلنج) منها قتل اليهود في الشام للأب (توما الأكويني) وعصره ليصنعوا منه كعكة الغفران.

وفي المجتمعات الرومانية القديمة شهدت النصرانية على أيدي الأباطرة الرومان (نيرون ودوميشان سبتموس سفريوس) وغيرهم إرهابا قاسيا بسبب مصادرة حرية التدين، كان من أبرز مظاهره

إحراق الأمبراطور الروماني (نيرون المتوفى عام ٩٦م) مدينة روما ليشفي حقه بمرآها وهي تشتعل بأهلها وأموالهم، وتعذيبه لمؤمني النصراري، ومارست الكنيسة أسلوب الإرهاب الديني مع مخالفيها في عهد الأمبراطور الروماني (قسطنطين) في نهاية الربع الأول من القرن الرابع الميلادي حينما أصدر قرارا بحرق اليهود، وفي بريطانيا أحرقت الملكة تيودور عام ١١٥٥م مائتين وثلاثة وثمانين شخصا لأنهم ينتمون لطائفة البروتستانت، وفي فرنسا ابتداء من عام ١٢٠٨م ولمدة خمس سنوات ذبح مليون شخص من (الألبين) للعلة نفسها، وفي أمريكا مورس الإرهاب ضد الهنود الحمر والملونين السود.

كما ارتكب البرتغاليون والأسبان في القرن الخامس عشر الميلادي أبشع أنواع العنف والإرهاب ضد الشعوب المستعمرة، وتبعهم في ذلك الهولنديون والبريطانيون والإيطاليون، وكانت الدول الاستعمارية تكرر على شعوب البلاد المستعمرة مقاومة هذا الإرهاب^(١).

وتعرض العالم لآثار مدمرة نتيجة حربي الإبادة العالميتين الأولى والثانية التي قادتها بريطانيا وفرنسا واليابان وأمريكا وذهب ضحيتها الملايين من البشر وتركت خسائر مالية كبيرة لا تقدر بعدد، وكانت أبشع صورها إلقاء الولايات المتحدة الأمريكية القنبلة الذرية على مدينتي هيروشيما ونجازاكي اليابانيتين.

وبالرغم مما تتمتع به شعوب الدول الغربية واليابان من حريات، وما يتوافر لدى حكوماتها من قوة هائلة في المعلومات ونظم الأمن المتطورة فإنها غدت في العقود الماضية بيئة للأعمال الإرهابية الموجهة ضد أمنها وسيادة القانون فيها، فقد:

- ◆ ظهر التيار النازي في ألمانيا ثانية وبقوة منذ عام ١٩٨٦م.
- ◆ ظهرت حركة (لوبن) القومية المتطرفة في فرنسا.
- ◆ ظهرت حركة (الباسك) الأسبانية التي تسببت في قتل مئات الأبرياء من المواطنين والسياح، وإتلاف ما قيمته ملايين الدولارات.

(١) تشريعات مكافحة الإرهاب في الوطن العربي لمحمد محيي الدين عوض/٤١.

- ◆ تعرضت بريطانيا منذ عام ١٩٧٠م لسلسلة من الأعمال الإرهابية الخطيرة من جانب جيش إيرلندا الجمهوري (IRA).
 - ◆ ظهرت جماعات اليمين المتطرف في ألمانيا على أعقاب توحيد ألمانيا وزيادة حجم البطالة.
 - ◆ ظهر الجيش الأحمر الألماني ومجموعة (اندرياس بادر ماينهوف).
 - ◆ ظهرت الأنشطة الإرهابية للأجنحة العسكرية اليسارية في كل من فرنسا وبلجيكا.
 - ◆ ظهرت الفيلق الحمراء الإيطالية (الألوية الحمراء)^(١).
 - ◆ ظهرت منظمة (حقيقة أوم العليا)، و(مافيا يكوزا) في اليابان.
 - ◆ عانت الولايات المتحدة الأمريكية من المنظمات الإرهابية الأمريكية وغيرها، وفي مقدمتها منظمة (كو كلوكس كلان) التي تأسست ما بين عامي ١٨٦١م - ١٨٦٥م^(٢)، وتعرضت لعدد من الأعمال الإرهابية منها حادث المركز التجاري بأكلاهوما عام ١٩٩٥م الذي راح ضحيته ١٨٦ مدنيا و ٤٠٠ جريح على يد أحد رجال الجيش الأمريكي ويدعى (تينوثي ماك فاي).
 - ◆ تعرضت الولايات المتحدة الأمريكية في ١١ سبتمبر لحوادث اختطاف طائرات أدت إلى تدمير المركز التجاري في نيويورك وهدم جانب من وزارة الدفاع الأمريكية في واشنطن، وتسبب في قتل ثلاثة آلاف شخص تقريبا.
- تطورت ظاهرة الإرهاب في الوقت الحاضر لتظهر في أشكال مختلفة ومتنوعة مثل اختطاف الطائرات ونسف المباني والجسور وتدمير المنشآت الحضارية وغيرها، ولم تسلم منها دولة من الدول أو مجتمع من المجتمعات البشرية بما فيها المجتمعات المتقدمة علميا والغنية ماديا والقوية أمنيا، مما يدل على أنها لا ترتبط بدين من الأديان ولا بشعب من الشعوب، ولا بطبقة اجتماعية معينة، وإنما تحدث غالبا

(١) تشريعات مكافحة الإرهاب في الوطن العربي لمحمد محيي الدين عوض / ٤٧:٤٢.

(٢) الإرهاب في العالمين العربي والغربي لأحمد يوسف النل/٤٣٢.

كمسلك تنفيذي لمعتقد خاطئ، أو مسلك انتقامي، أو بسبب وازع عدواني يصدر عن نفس خبيثة ملئت حقدا وكرهية للآخرين وطبعت على حب التدمير والإفساد في الأرض، وغذاها الجهل والفقر والإحباط النفسي.

وقد تعرضت الشعوب الإسلامية أكثر من غيرها لحوادث القتل والإبادة الجماعية، فقد عانى المسلمون لمدة قرنين ابتداء من نهاية القرن العاشر الميلادي من حروب صليبية متوحشة في الشام ومصر، وتعرضوا في الأندلس لألوان من التعذيب والتنكيل والإبادة الجسدية خلال عامي ١٦٠٩-١٦١٠م عن طريق محاكم التفتيش التي سيقوا إليها في قشتالة وأشبيلية وغرناطة، وذاقوا مرارة الهيمنة العسكرية الاستعمارية الإيطالية والبريطانية والفرنسية والأسبانية والهولندية خلال القرنين التاسع والعشرين التي تفننت في التعذيب والاضطهاد واجتثأت كل حركات التحرر من الاستعمار، ولم تزال الشعوب الإسلامية في فلسطين وكشمير والفلبين تتعرض لألوان من الإذلال والمهانة.

موقف الإسلام من الإرهاب:

لا ريب أن الإرهاب مرفوض في الأديان والقوانين، ويمثل خطرا على المجتمعات والدول إذ يتخذ من إهلاك الحرث والنسل بغير حق وسيلة لتحقيق هدف من الأهداف الشخصية أو القومية أو الدولية، وقد نبذ الإسلام التطرف بكل أشكاله، وعده نوعا من الظلم، وبين أن مصير الغالي المتطع الهلاك والانقطاع، قال (ﷺ): (هلك المتنتعون)^(١)، وقال (ﷺ): (إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا)^(٢)، واعتبر الإسلام التطرف العملي نوعا من المحاربة لله ورسوله (ﷺ) والإفساد في الأرض يستحق فاعله أشد العقوبات وأقساها ذلك أن الإسلام (دين يمتلك صيغة وفاق إنساني عالمي، يملكها منهجا، ويملكها سيرة وتاريخا وحضارة من غير أن يصادر حقوق الآخرين وتطلعاتهم، ويحقق ذلك من خلال مباديء

(١) رواه مسلم في كتاب العلم، باب: (هلك المتنتعون).

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب الدين يسر.

عادلة يرتضونها لأنفسهم، من هذه المبادئ سماحته ورحابة مبادئه واحتواؤه على أسس التعايش السلمي العالمي لجميع أمم الأرض مهما اختلفت انتماءاتها الدينية والطائفية والعرقية والثقافية، ومنها أنه لا يكره أحدا على دخول الإسلام^(١).

كما أن الإسلام دين يدعو إلى السلام والتسامح والأمن والاستقرار على الأرض، وهو دين رفع شعار السلام، وجعله عنوانا له، وعلى أساسه رسم ملامحه ومبادئه، فقد قضى على نزعات العنف الهدامة، وعلى بذور الشر في النفس الإنسانية، وإذا كان التطرف أو الإرهاب ينشأ أو يرتكب لدوافع سياسية واقتصادية واجتماعية فإنه عالج هذه الدوافع من المهد، ولم يسمح بوجودها أو تطورها، وقد دعا إلى نبذ العنف والإكراه، والجنوح إلى السلم، وحرّم استخدام القوة بشكل غير مشروع، وأمر أن يعتمد الحوار مع المخالف على المجادلة والتي هي أحسن، وشرع قانونا متكاملا يحدد جرائم الإفساد في الأرض التي تحدث على وجه الإخافة والإرهاب، وبين صورها، وجزاء مرتكبيها، وعدّها نوعا من محاربة الله تعالى قبل محاربة أفراد المجتمع^(٢)، وعاقب عليها بجزاء رادع للمجرم وزاجر لغيره من ارتكاب ذات الجريمة وتكرارها.

بل سبق الإسلام جميع الدساتير الحديثة في معالجة ظاهرة التطرف ومكافحة الإرهاب والعنف، وذلك عن طريق تقرير المبادئ التي تعترف بكرامة الإنسان ومسؤوليته، وتشريع الأحكام التي تحفظ حياته وعرضه وماله ودينه وعقله؛ لذا (منع الإسلام بغّي الإنسان على أخيه الإنسان، وحرّم كل عمل يلحق الظلم) ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَأَلَّا تُمَ الْبَغْيَ يُغَيِّرَ الْحَقَّ وَأَن تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلَّ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾ {الأعراف: ٣٣}، (وشنع على الذين يؤذون الناس في أرجاء الأرض، ولم يحدد ذلك بديار المسلمين وأمر بالابتعاد عن كل

(١) ملخص محاضرة بعنوان: موقف الإسلام من الإرهاب، أُلقيت في ندوة الإسلام

وحوار الحضارات للدكتور صالح بن حميد، صحيفة اليوم، الثلاثاء ١٤٢٣/١/٥ هـ

١٩ مارس ٢٠٠٢م العدد / ١٠٥٠٤.

(٢) مقالة: إرهاب المقاومة للدكتور ماجد ياسين الحموي، صحيفة الشرق الأوسط،

الأربعاء ١٤٢٣/٢/١١ هـ ٢٤ إبريل ٢٠٠٢م.

ما يثير الفتن بين الناس، وحذر من مخاطر ذلك^(١) ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿٢٥﴾ {الأنفال: ٢٥}.

ويقيم الإسلام علاقة المسلم بالمخالف له في الدين من أهل الكتاب وغيرهم على أساس التعامل بالبر والقسط والاعتراف له بالحقوق المدنية، والعيش في ديار المسلمين بأمان سواء كان ذمياً أو مســــــتأمناً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٨﴾ {المائدة: ٨}، وقد أوجب الدية والكفارة على قتل أحدهم خطأ، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَقٌ فِدْيَةً مِّسْلَمَةً إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿١٢﴾ ﴿١٣﴾^(٢).

موقف المملكة العربية السعودية من الإرهاب:

تعد المملكة في مقدمة الدول التي أعلنت حربها على الإرهاب، وقد حرصت على المشاركة في المؤتمرات الإقليمية والدولية التي تعنى بهذا الموضوع، وعلى الانضمام إلى الاتفاقيات العربية والدولية التي تسهم في مكافحة ظاهرة الإرهاب، كما أنها عملت بكل دقة وجدية على تنفيذ بنود الاستراتيجيات والخطط الأمنية التي تم إقرارها لتحقيق التكامل الأمني ومكافحة الجريمة بكل صورها وأشكالها والحفاظ على أمن الوطن وحماية حياة أفراده وممتلكاتهم، وتوثيق أواصر التعاون الأمني خاصة بين الدول العربية، ومن ذلك تنفيذ الاستراتيجية العربية لمكافحة الإرهاب التي أقرها مجلس وزراء الداخلية العرب عام ١٤١٧هـ، وأعقب ذلك إقرار الاتفاقية العربية لمكافحة الإرهاب في

(١) بيان مكة الصادر عن المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي في دورته ١٦/ المنعقدة من ٢١- ٢٦/١٠/١٤٢٢هـ، صحيفة اليوم، السبت ٢٨/١٠/١٤٢٢هـ، العدد ١٠٤٣٨.

(٢) سورة النساء: (٩٢).

صورتها النهائية عام ١٤١٩ هـ بهدف تعزيز التعاون لمنع الإرهاب ومكافحته وإزالة أسبابه، والتعاون مع الدول والمنظمات الدولية من أجل ذلك^(١).

ومن المؤسف أن المملكة العربية السعودية لم تسلم من هذه الظاهرة؛ إذ اجتاحت موجتها بعض مدنها الكبيرة متعرضة لحوادث إرهابية مؤلمة، كان ضحيتها الأبرياء من المدنيين ورجال الأمن، وحصول دمار لبعض مرافقها الهامة وبنيتها التحتية، واستهدفت أمنها ووحدتها إلا أن هذه الظاهرة تم التصدي لها بعون من الله تعالى ثم بفضل حزم الدولة في التعامل معها، ووعي المواطن بخطورتها وتعاونها في مكافحتها.

إن الأعمال الإرهابية تعد من الناحية الشرعية جريمة خطيرة لما لها من آثار سيئة على ضروريات الناس وحياتهم ومعاشهم، لذلك ألحقها هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية بجريمة الحراية والإفساد التي توعدها الله فاعلها بعقوبة زاجرة ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ {المائدة: ٣٣} لبشاعتها وعظم ضررها، يظهر هذا جليا في قرارات الهيئة وفق ما يأتي:

١- اعتبار قتل الغيلة نوعا من الحراية، وهو ما كان عمدا عدوانا على وجه الحيلة والخداع، أو على وجه يأمن معه المقتول من غائلة القاتل، وذلك بقرار الهيئة رقم (٣٨) وتاريخ ١١/٨/١٣٩٥ هـ.

٢- اعتبار التفجير والاختطاف وإشعال الحرائق في الممتلكات العامة والخاصة، ونسف المساكن والجسور والأنفاق، وتفجير الطائرات أو خطفها من الحراية، وذلك بقرار الهيئة في دورتها الثانية

(١) مقالة: قراءة متأنية للتجديدات الإجرامية لسعد عودة الراددي، جريدة عكاظ في عدد

الثلاثاء ١٩ ربيع الأول ١٤٢٤ هـ رقم ١٣٤١٥ / ٨.

والثلاثين المنعقدة في مدينة الطائف في الفترة من ١٤٠٩/١/٨ هـ إلى ١٤٠٩/١/١٢ هـ.

٣- اعتبار حوادث التفجير التي حدثت في بعض المدن العربية، وما حصل بسببها من قتل وتدمير وترويع وإصابات لكثير من الناس من المسلمين وغيرهم من الإفساد، وذلك في بيان أصدره مجلس الهيئة في الطائف في ١٤١٧/٢/١٤ هـ.

لذا فإن المسلم يجب عليه أن يخاف الله تعالى ويتقنه، ويتجنب كل ما فيه إضرار بأمن الناس ومعاشهم، وأن يتعاون مع ولي الأمر والقائمين على الأمن في التصدي لكل من يتبنى أفكاراً ضالة، أو يمارس سلوكاً يخل بأمن الوطن أو يسيء إلى مبادئه ووحدته، فإن الأمن نفيس لا يصح التهاون فيه بأي حال من الأحوال.

القضية الثالثة: الاستشراق

معنى الاستشراق:

هو تعلم علوم الشرق.

ويرى المستشرق (ميكائيل أنجلو جويدي) أن المستشرق الجدير بهذا اللقب هو الذي لا يقتصر على معرفة بعض اللغات التي تتحدث بها الأمم الشرقية وإدراك عاداتها فحسب، بل يجمع إلى ذلك الوقوف على القوى الروحية والفكرية والأدبية التي أثرت في الثقافة الإنسانية^(١).

تاريخ الاستشراق:

لا يمكن تحديد اسم أول غربي اعتنى بالدراسات الشرقية، ولا في أي وقت، ولكن المتوقع أن رجال الكنيسة في أوروبا هم أول من قصد البلاد الشرقية، ولاسيما الأندلس إبان ازدهارها لدراسة العلوم الإسلامية وترجمة القرآن الكريم والعلوم الأخرى وبخاصة الفلسفة والطب والرياضيات، ومن أوائل هؤلاء الراهب الفرنسي (جربرت) الذي انتخب باباً لكنيسة روما عام ٩٩٩م بعد عودته من الأندلس،

(١) الاتجاهات الفكرية المعاصرة للدكتور علي جريشة / ١٧.

وبطرس المحترم (١٠٩٢ - ١١٥٦م)، وجيراردي كريمون (١١١٤ - ١١٨٧م)^(١).

تلك كانت البداية، إلا أن المؤرخين يكادون يجمعون على أن الاستشراق انتشر في أوروبا بصفة نشيطة بعد فترة عهد الإصلاح الديني على يد (مارتن لوثر) عام ١٥٤٣م، كما يشهد بذلك التاريخ في هولندا والدانمارك^(٢).

مراحل الاستشراق:

لقد مرَّ الاستشراق بثلاث مراحل، وهي على النحو الآتي:
المرحلة الأولى: مرحلة استكشاف كنه الإسلام وأسباب انتشاره، وحقيقة الفاتحين المسلمين وسر قوتهم العسكرية، وتعد هذه المرحلة مرحلة موضوعية تبحث عن الحقيقة.

المرحلة الثانية: وهي مرحلة مشوبة بالعدوان، وتبحث عن العيوب والنقائص في العلوم الإسلامية وبنية المجتمع، وتوجّه الصليبيين ضد مصالح المسلمين، وتعمل على إثارة الشبه حول قضايا الإسلام لإضعاف القناعة به.

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة العدوان السافر، وقد ظهرت بعد فشل الحملات الصليبية التي كان آخرها الحملة الثامنة بقيادة لويس التاسع الذي لفت أنظار الغرب بعد أسره في المنصورة بمصر إلى الغزو الفكري حين قال: (لا سبيل إلى النصر والتغلب على المسلمين عن طريق القوة الحربية، لأن تدينهم بالإسلام يدفعهم للمقاومة والجهاد وبذل النفس في سبيل الله لحماية دار الإسلام وصون الحرمات والأعراض، وأنه لا بد من سبيل آخر وهو تحويل الفكر الإسلامي وترويض المسلمين عن طريق الغزو الفكري)^(٣).

فكانت منعطفاً في تاريخ الاستشراق حوّله إلى حرب العقيدة والفكر عن طريق التأليف والمؤتمرات والمجلات ووسائل النشر.

أهداف الاستشراق:

(١) الاستشراق والمستشرقون للدكتور مصطفى السباعي/ ١٣.

(٢) الفكر الإسلامي الحديث لمحمد البهي/ ٤٧٢.

(٣) الاتجاهات الفكرية المعاصرة للدكتور علي جريشة/ ١٨.

الهدف الأول- هدف علمي (هدف موضوعي): أقبل نفر قليل من المستشرقين على كتب التراث الإسلامي بهدف الإطلاع على حضارات الأمم وثقافتها ولغاتها ودراساتها دراسة موضوعية وجادة رغبة في الوصول إلى الحقيقة العلمية، وقد كانوا أقل من غيرهم خطأ، لأنهم فيما يظهر لم يتعمدوا التحريف والدس، فجاءت بحوثهم أقرب إلى الصواب والموضوعية من غيرهم، بل إن منهم من اهتدى إلى الإسلام مثل (اللورد هيدلي دانين دينيه) وتسمى (بناصر الدين دينيه)، ومنهم من كان مُنصفاً في رأيه مثل (رينان) الذي أنكر ألوهية المسيح عليه السلام وأثنى على كتب السيرة النبوية، و (كان لايل) الذي أعجب بشخصية الرسول، ووعده من الأبطال، على أن هؤلاء غالباً ما يعتمدون على مواردهم المالية الخاصة بحيث يتمكنون من البحث المجرد عن الهوى أو التأثير الخارجي^(١).

الهدف الثاني- هدف صليبي، وتمثل فيما يأتي:

(١) الانتصار للصليبية التي اتجهت حملاتها إلى البلاد الإسلامية ثم الاستمرار في القيام بدور الهجوم الفكري على عقيدة الأمة الإسلامية وفكرها بعد فشل هذه الحملات عسكرياً عن طريق تشويه مبادئ الإسلام وقيمه ومصادره وتاريخه.

(٢) التهيئة للتبشير بالنصرانية بين المسلمين ليقوم الاستشراق بوظيفة تجهيز المنصرين، وإحاطتهم بواقع العالم الإسلامي، وعيوب المجتمعات الإسلامية، وأماكن تجمعات النصاري المقيمين في البلاد الإسلامية، ومدى تأثيرهم ومساعدتهم لدوائر التنصير بالمعلومات.

(٣) الحاجة إلى العلوم الإسلامية تجاوباً مع الضغط الفكري الذي تتعرض له الكنيسة عن طريق النقد للنظريات والآراء الفلسفية والتاريخية التي كانت تتبناها الكنيسة وتُضفي عليها صفة القداسة، مما اضطرها إلى إعادة النظر في شروح الأنجيل لمحاولة تفهمها على أساس التطورات العلمية الجديدة، ولأسيما بعد حركة الإصلاح الديني التي قادها (مارتن لوتر)، ومن هنا اتجهوا إلى الدراسات العبرانية وهذه أدت إلى الدراسات العربية، لأن هذه

(١) الاستشراق والمستشرقون للدكتور مصطفى السباعي/ ١٩.

الأخيرة كانت ضرورية لفهم الأولى، ومع مرور الزمن اتسع نطاق الدراسات الشرقية^(١).

الهدف الثالث- هدف دفاعي: حرص عليه رجال الكنيسة عن طريق الكتابة باللغات المحلية في أوروبا لتشويه صورة الإسلام ووصفه بالوحشية والعداء للشعوب الأخرى، والشدة في الأحكام حتى لا يغتر أبناء أوروبا بالحضارة الإسلامية ولاسيما في عهد ازدهار الحضارة العثمانية وامتداد فتوحاتها إلى قلب أوروبا مما كان محل إعجاب كثير من الأوروبيين وانبهارهم متكررين بذلك للأهداف العلمية^(٢).

وسائل الاستشراق وأنشطة المستشرقين:

- ١- **التأليف:** اتجه عدد كبير من المستشرقين إلى التأليف في موضوعات مختلفة عن الإسلام وعقيدته ورسوله (ﷺ) وقرآنه والسنة النبوية، وتعتمد غالب هؤلاء تشويه صورة الإسلام وإثارة الشبهات حوله، ومن هؤلاء:
 - أ. ج. أربري: وهو مستشرق إنجليزي معروف بالتعصب ضد الإسلام، ومن كتبه: (الإسلام اليوم) صدر عام ١٩٤٣م. (التصوف) صدر عام ١٩٥٠م (ترجمة القرآن) صدر عام ١٩٥٠م.
 - أ. ر. جب: وهو مستشرق إنجليزي معاد للإسلام، تتسم كتبه بالعمق والخطورة ومنها: (طريق الإسلام) بالاشتراك، (الاتجاهات الحديثة في الإسلام) صدر عام ١٩٤٧م، (المذهب المحمدي) صدر عام ١٩٤٧م.
 - أ. ج. فينسينك: عدو لدود للإسلام يدعي أن الرسول (ﷺ) أُلّف القرآن من خلاصة الكتب الدينية والفلسفية التي سبقته، ومن كتبه (عقيدة الإسلام) صدر عام ١٩٣٢م.

(١) الفكر الإسلامي الحديث لمحمد البهي / ٤٧٢.

(٢) الاتجاهات الفكرية المعاصرة للدكتور علي جريشة / ١٩ - ٢٠.

٢- **الجمعيات والمجلات:** أنشئ في أوروبا عدد من الجمعيات التي تخدم الاستشراق، وتسعى إلى تحقيق أهدافه ابتداءً من عام ١٧٨٧م، حيث أنشئت جمعية المستشرقين في فرنسا، وألحق بها أخرى عام ١٨٢٠م، وأصدرت (المجلة الآسيوية)، وفي لندن تأسست جمعية تحت رعاية الملك عام ١٨٢٣م باسم (الجمعية الآسيوية الملكية)، وفي أمريكا عام ١٨٤٢م نشأت (الجمعية الشرقية الأمريكية)، وصدرت عدة مجلات منها: (مجلة الدراسات الشرقية) وكانت تصدر في ولاية (أوهايو)، ومجلة (شئون الشرق الأوسط) وهي ذات طابع سياسي.

٣- **الدوائر المعرفية:** ومن أشهرها (دائرة المعارف الإسلامية) التي كانت تصدر بعدة لغات، وقد استنفر المستشرقون كل قواهم وسخروا كل أعلامهم من أجل إصدار هذه الموسوعة التي تعتمد على الخلط والتحريف والعداوة السافرة لفكر الإسلام.

إلى غير ذلك من المجالات، مثل محاولتهم الدخول في الجامعات العلمية العربية كمجمع اللغة العربية بالقاهرة وفي دمشق، كما حاولوا التأثير على مبادئ التربية الإسلامية واستبدالها بالمبادئ الغربية^(١).

آثار الاستشراق على ثقافة المسلمين:

أدى الاستشراق إلى إضعاف عقيدة المسلمين، وتشويه صورة الإسلام لدى أبنائه، وإشعارهم بتناقض دينهم وقصوره في مواجهة الجديد والمتطور في واقع الحياة، ومقارنة ذلك بالفكر الغربي الذي أظهره المستشرقون في صورة الفكر المتكامل والمتلائم مع الحياة العصرية، مما أدى إلى انهزام نفسية كثير من المسلمين أمام التيار الجارف من كتابات المستشرقين التي تدس الفكر المنحرف، وتثير الشبه حول الإسلام.

القضية الرابعة: التنصير
تعريف التنصير:

(١) الفكر الإسلامي الحديث لمحمد البهي/ ٤٧٤ - ٤٧٦. الاستشراق والمستشرقون

للدكتور مصطفى السباعي/ ٢٦ - ٤٣.

أ- **في اللغة:** كلمة التنصير مأخوذة من نصَّره أي أدخله في النصرانية، وجعله نصرانياً^(١)، ومنه قول (ﷺ): (ما من مولود إلا يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه)^(٢)، وقيل: سميت بالنصرانية نسبة إلى مدينة الناصرة بفلسطين، وقد موه المستشرقون لما سموا التنصير بالتبشير لإخفاء غايتهم منه، وهي الدعوة إلى النصرانية؛ إذ تسميته بالتبشير مأخوذة من البشارة، وهي الخبر الذي يفيد السرور، ويظهر أثره الحسن على بشرة الإنسان.

ب- **في الاصطلاح:** هي الجهد المبذول بصفة فردية أو جماعية في دعوة الناس إلى النصرانية، ويطلق أيضاً على ما تقوم به المنظمات الدينية من تعليم الدين النصراني ونشره^(٣).

نشأة التنصير:

يعود تاريخ التنصير كدعوة إلى مبتدأ دعوة المسيح عليه السلام إلى توحيد الله تعالى وإلى إصلاح ما أفسده بنو إسرائيل في شريعة موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى

وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ {المائدة: ٤٦}، وكانت دعوة سرية بسبب تكذيب اليهود للمسيح عليه السلام واضطهاد الرومان لأتباعه إلا أن النصارى مع تقادم العهد بالمسيح، وابتعادهم عن تعاليمه انحرفوا عن التوحيد، وبدلوا الشريعة التي أمروا باتباعها، وأعادوا كتابة الأنجيل بما يتوافق مع أهوائهم، ونسبوا ما ادعوه من تحريف في التوحيد وتبديل في الشريعة إلى الله وبعد اعتناق (قسطنطين) النصرانية في القرن الرابع الميلادي وإصداره قرار حرية التدين عام ٣١٢م بميلانو تحولت دعوة أتباع المسيح عليه السلام إلى دعوة جهرية، إلا أن دعوة المسلمين إلى النصرانية لم تعرف بالتأثير والنشاط المدعومين إلا بعد فشل الحملات

(١) لسان العرب لابن منظور، مادة: نصر.

(٢) رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات ٤٥٦/١، ومسلم في

كتاب القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة.

(٣) الغزو الفكري لعلي عبد الحميد/ ١٦١.

الصليبية التي استمرت مائتي سنة من الحروب الدامية، تمكن النصارى خلالها من الهيمنة على بيت المقدس، ومن ثم استردها المسلمون من أيديهم في معركة حطين عام (٥٨٣هـ - ١١٨٨م) بقيادة القائد صلاح الدين الأيوبي، وما تبع هذه المعركة من هزائم شنيعة للنصارى، دفعهم إلى إيقاف هذه الحملات، واتباع مسلك آخر في مواجهة المسلمين، هو الغزو الفكري، ويُذكر أن القسيس (فرانس) من أوائل النصارى الذين وصلوا إلى العالم الإسلامي، فقد وصل إلى مصر عام (٦١٦هـ - ١٢١٩م)، كما أرسل القديس (فرانسيس) عددا من المنصرين إلى مراکش بالمغرب، كما قدم (ريمون لول) الراهب الأسباني عام (٦٩٣هـ - ١٢٩٤م) إلى البابا خطة لتنصير المسلمين بعد أن أتقن اللغة العربية في مدارس الأندلس بكل مشقة، وجال في بلاد الإسلام وناقش علماء المسلمين^(١)، وغيرهم من القساوسة الذين اتجهوا إلى بلدان العالم الإسلامي لتنصير أبناء المسلمين.

وبرز التنصير بعد ذلك نشاطا للكنائس حينما أرسلت عددا من رسالياتها المتعددة إلى الهند وجزائر السند^(٢) والشرق العربي لتنصير المسلمين، ففي عام (١٢٠٩هـ - ١٧٩٥م) بدأ نشاط جمعية التنصير المعمدانية في بنغلاديش، وفي عام (١٢٥٨هـ - ١٨٤٣م) أسست الجمعية التنصيرية (أخوات القديس يوسف) مدرسة للبنات بتونس، وفي عام (١٢٨٥هـ - ١٨٦٨م) أسست (جمعية الآباء البيض للسيدة العذراء) في شمال أفريقيا لتنصير المسلمين، وفي عام (١٣٠٩هـ - ١٨٩٢م) وصل القس (صموئيل زويمر) إلى البحرين ليتخذها مركزا للتنصير في منطقة الخليج العربي، وهكذا تتابعت الإرساليات وتلاحقت، وشملت بقاعا واسعة في البلدان الإسلامية^(٣).

بواعث التنصير:

أولاً: الباعث الديني:

(١) الغارة على العالم الإسلامي لشاتليه، ترجمة محب الدين الخطيب ومساعد اليافي/

(٢) أجنحة المكر الثلاثة لعبد الرحمن الميداني/ ٢٨.

(٣) نحو ثقافة وسطية راشدة للدكتور محمد اليحياوي / ١٨٤.

يستند المنصّرون في دعوتهم الناس إلى النصرانية على تفويض إلهي ورد في إنجيل (متى) بتتصير الناس ينسب إلى المسيح عليه السلام في قوله للحواريين: (اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمدوهم باسم الأب والابن وروح القدس)^(١)، وقوله: (اذهبوا إلى العالم أجمع، واكرزوا-أي عظوا-إلى العالم أجمع، واكرزوا إلى العالم أجمع، واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها)^(٢).

وواقع حال التنصير أنه تحول من دعوة لإنقاذ المسلم من الضلال إلى وسيلة إفساد تعمل إلى إخراج المسلم من دينه ليكون ملحقاً كما يقول (زويمر) في مؤتمر القدس عام ١٩٣٥م: (مهمة التنصير التي نَدَبْتُكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية، فإن في هذا هداية لهم وتكريماً، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله)^(٣)، والتالي فإن هذا الباعث صار ثانوياً، إذ أن نفراً قليلاً من المبشرين يهدف إلى نشر الدين النصراني، على أن الكثرة ترمي إلى إخراج المسلم من دينه .

ثانياً: الحقد الصليبي:

يمكن القول بأن هذا الباعث من أقوى البواعث، فإنه منذ انتشر الإسلام وظهر على الدين كله وأهل الكتاب يضمرون العداوة للإسلام وأهله، وزاد الأمر كراهية بعد اتساع نفوذ الدولة الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وسيطرتها على الشام ومصر التي ينظر إليها الصليبيون على أنها تابعة لهم على أساس أنها كانت جزءاً من ممالك الدولة الرومانية، وامتدادها في عهد العثمانيين إلى شرق أوروبا وجنوبها، وهو ما عبر عنه المنصر الألماني (بيكر) في قوله: (إن الإسلام لما انبسط في العصور الوسطى أقام سداً في وجه انتشار

(١) الإصحاح ٢٨/ ١٨-٢٠.

(٢) إنجيل مرقس، الإصحاح ١٦/ ١٥-١٦.

(٣) الاتجاهات الفكرية المعاصرة، لعلّي جريشة/ ٣١.

النصرانية، ثم امتد إلى البلاد التي كانت خاضعة لصولجانها^(١) وزاد حقد النصارى بعد ارتدادهم على أديارهم مهزومين إثر الحروب الصليبية التي دامت قرنين، مما ولد في نفوسهم آلاماً صعب عليهم نسيانها ففرغوها في مخططات التنصير التي تسعى إلى تحويل المسلمين عن دينهم ولَوْ إلى الإلحاد^(٢)، وتعمل على بسط النفوذ الغربي عن طريق تلاميذ التنصير والمُعْتَرِّين بحضارة الغرب، وهذا ما أبدته ألسنتهم، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَلَيْهِمْ قَدْ بَدَتْ أَلْبَعْنَاءُ مِّنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ {آل عمران: ١١٨}، يقول المنصر (جون تاكلي): يجب استخدام أمضى سلاح ضد الإسلام لنقضي عليه تماماً^(٣)، ويقول المنصر (روبرت ماكس): (لن نتوقف جهودنا وسعيينا في تنصير المسلمين حتى يرتفع الصليب في سماء مكة، ويقام قداس الأحد في المدينة)^(٤).

ثالثاً: الباعث السياسي:

حقق الغرب عن طريق التنصير نفوذاً سياسياً في العالم الإسلامي، بدأ مع الاستعمار حين اعتمدت سياسة الدول الاستعمارية على جهود الرهبان والمبشرين، فكثيراً ما كان المنصرون يتولون مناصب سياسية وعسكرية ويتسترون بالتنصير، ويعملون على حض حكوماتهم على بث المبشرين في العالم، منهم الجنرال (هانغ) الذي نصح الحكومة البريطانية أن ترسل مبشريها إلى شبه جزيرة العرب، والمنصر (لافيجري) الذي كان رئيساً للبعثة المرافقة للجيش الفرنسي بتركيا، وكان يقوم بتقديم النصح للجيش الفرنسي باحتلال البلدان الإسلامية، وبذلك ساهم التنصير والاستشراق في تقديم النصح

(٢) التبشير والاستعمار للخالدي/٣٦.

(٢) أجنحة المكر الثلاثة، لعبد الرحمن الميداني/ ٢٧.

(٣) التبشير والاستعمار للخالدي/٤٠.

(٤) الزحف إلى مكة: حقائق ووثائق عن مؤامرة التنصير في العالم الإسلامي لعبد

الودود شلبي/ ١٣.

والمعلومات للدول الاستعمارية الغربية^(١) التي رأت في احتلال الدول الإسلامية ما يحقق أهدافها التوسعية التي تؤمن حاجتها من الأيدي العاملة للعمل في المصانع وبناء البنية التحتية، ومن المواد الخام المعدنية والزراعية التي تتطلبها مصانعها الحديثة، ومن الأسواق لمنتجاتها الكثيرة، ومن ثم صارت الحكومات الاستعمارية معينا للمنصرين في الدول الإسلامية التي خضعت لسيطرتهم عرافانا بجميلهم، كما وجد المنصرون في هذا العون ما يحقق هدفهم وهو إعادة مملكة المسيح، كما يظهر من قول المنصرين اليسوعيين لما مارسوا نشاطهم في ظل الحكومات الاستعمارية: نحن ورثة الصليبيين، رجعنا تحت راية الصليب لنستأنف التسرب التنصيري، ولنعيد... مملكة المسيح^(٢).

الأمر الآخر أن التنصير يسهم في درء خطر الوحدة الإسلامية التي يحن إليها المسلمون بعد سقوط الخلافة العثمانية عام ١٣٤٣هـ- ١٩٢٤م، لقد أبرز (لورنس براون) هذا الموقف في صورة واضحة حين قال: (إذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً، أو أمكن أن يصبحوا نعمة أيضاً، أما إذا بقوا متفرقين، فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير).

لذلك كان التنصير عاملاً مهماً في كسر كل دعوة إلى الوحدة الإسلامية، لأنه عمل على إظهار الغرب بمظهر جذاب يبهر العقول، ويستميل النفوس، إلى جانب حرصهم على تحويل مجاري التفكير في الوحدة الإسلامية إلى التفكير في الدخول في النصرانية^(٣)، والأخذ بأسباب نهضة أوروبا التي هي سبيل نهضة العالم الإسلامي، إلى غير ذلك من البواعث الشخصية والمالية.

وسائل التنصير:

أولاً: التنصير المباشر:

يقوم به فرد أو مجموعة من المبشرين المتفرغين لهذه الوظيفة ممن توظفهم الكنيسة وعاطفاً لنشر النصرانية، ويعتمد هذا النوع على الإقناع الفردي والوعظ العام في الكنائس أو الأماكن العامة

(١) التنصير والاستعمار لعمر فروخ، و مصطفى خالدي / ٣٤.

(٢) التبشير والاستعمار للخالدي / ١١٥-١١٦.

(٣) المرجع نفسه / ٣٦.

لتعريف الناس بالمسيح وحياته وتعاليمه، وقد أهمل استخدام هذه الوسيلة لأنها لم تكن مجدية في العالم الإسلامي بسبب حرص المسلمين على تمسكهم بدينهم، واعتقادهم أن الديانة النصرانية ديانة محرفة.

ثانياً: وسائل التنصير المساعدة:

يُقصد بها التنصير عن طريق مجالي التعليم والعلاج والخدمة الاجتماعية والإعلام، وقد ظهر هذا الأسلوب في القرن التاسع عشر الميلادي عندما دخلت البلاد الاستعمارية في تحالف مع الإرساليات التنصيرية، وقد حققت هذه الوسائل نجاحاً في ذلك.

أما وسيلة التعليم فتعد من أنجح الوسائل لنشر النصرانية، ويتم ذلك عن طريق إنشاء مدارس للمراحل الأولى، والتي غالباً ما يدرس فيها المنهج النصراني والفكر العلماني، ويتعلم فيها أبناء عليّة القوم الذين يتوقع لهم التأثير في واقع مجتمعاتهم مستقبلاً، كما امتد نشاط المبشرين إلى التعليم العالي فافتتحت كليات تنصيرية كجامعة مانيتا وبيروت والقاهرة وتركيا وغيرها، لمناهضة أنشطة الجامعات الإسلامية إذ لم يكن اهتمامهم بالتعليم بقصد نشر العلم ومحاربة الأمية والجهل بين المسلمين، وإنما الغاية كما يقول المنصر الأمريكي (هنري جاسب) هي: (قيادة الناس إلى المسيح، وتعليمهم حتى يصبحوا أفراداً نصارى وشعوباً نصرانية)^(١).

أما العلاج فهو الوسيلة الفعالة في المجتمعات الإسلامية لإقناع الناس بحاجة المجتمع إلى المنصرين لاسيما في المجتمعات الفقيرة المتخلفة التي تمارس فيها التعاويذ والتمايم كوسيلتي علاج، ولإيجاد روح الاعتراف بالجميل والعرفان للمعاملة الطيبة التي قدمت لهم، وحقق المبشرون منها كسر حدة التحامل عليهم وبناء قناة اتصال بهم^(٢).

فقد استغل المنصرون آلام المرضى وحاجتهم إلى العلاج على أساس مقولتهم: (حيث تجد بشراً تجد آلاماً، وحيث تكون آلام تكون الحاجة إلى الطبيب، وحيث تكون الحاجة إلى الطبيب فهناك فرصة

(١) المرجع نفسه/ ٦٦.

(٢) ملامح عن النشاط التنصيري في الوطن العربي لإبراهيم عكاشة / ٢٦-٣١.

مناسبة للتنصير)^(١)، لذا سارع المنصرون إلى إنشاء المراكز الصحية والمستشفيات لتقديم العلاج فأنشأوا أول عيادة لهم في منطقة الأناضول بمدينة (سيواس) عام ١٢٧٥ هـ ١٨٥٩ م، وفي الشام أنشأوا مركزاً طبياً عام ١٢٩٢ هـ ١٨٧٥ م، وفي مصر أنشأوا مركزاً طبياً بمدينة القاهرة عام ١٣٠٦ هـ ١٨٨٩ م، وفي الخليج العربي أنشأوا (مستشفى لانسنج التذكاري) بمدينة البصرة عام ١٣٢٩ هـ ١٩١١ م، و(مستشفى ماسون التذكاري التذكاري) بمدينة المنامة عام ١٣٣٠ هـ ١٩١٢ م، وتتابع نشاطهم الطبي موهين حقيقة ما يستهدفونه من تقديم العلاج للمريض المسلم في الظاهر إلى ما يبتغونه من دعوته إلى النصرانية^(٢)، وهو ما يفصح عنه الطبيب المنصر (أرهاس) في قوله: (يجب على طبيب إرساليات التنصير أن لا ينسى ولا في لحظة واحدة أنه منصر قبل كل شيء، ثم هو طبيب بعد ذلك)^(٣).

آثار التنصير على ثقافة المسلمين:

(١) إخراج المسلمين من دينهم وإدخالهم في النصرانية كما حدث في تنصير بعض المناطق الإسلامية في أفريقيا وشرق آسيا، يوضح ذلك المنصر (رايد) حيث يقول: (إنني أحاول أن أنقل المسلم من محمد إلى المسيح)^(٤)، وإن كان النصاري لم يحققوا في سبيل تحقيق هذا الهدف نجاحاً كبيراً يتناسب مع الجهد المبذول إلا أنهم نجحوا في إحداث ردة بين المسلمين وإضعاف ولاء كثير منهم لدينهم، وتلك كانت غاية أخرى للمنصرين، وهو ما أفصحوا عنه في مؤتمرهم الذي عقد عام ١٩٢٧ م بأن (الغاية التي نرمي إليها هي إخراج المسلم من الإسلام فقط؛ ليكون مضطرباً في دينه، وعندها لا تكون له عقيدة يدين بها ويستترشد بهديها، وعندها يكون المسلم ليس له من الإسلام إلا اسم أحمد أو مصطفى)^(٥).

(٢) التبشير والاستعمار للخالدي/٥٩.

(٣) نحو ثقافة وسطية راشدة للدكتور محمد اليحياوي/٢٠٠-٢٠١.

(٤) الغارة على العالم الإسلامي لشتاتيليه/٢٣.

(٥) التنصير والاستعمار لعمر فروخ، و مصطفى خالدي / ١٩٢.

(٥) ملامح عن النشاط التنصيري في الوطن العربي لإبراهيم عكاشة / ٣٨.

(٢) إضعاف قوة المسلمين بإضعاف صلتهم بدينهم، فإن المنصرين أدركوا أن تمسك المسلمين بدينهم هو سر قوتهم يقول، المنصر (جاردنر): (إن القوة التي تكمن في الإسلام هي التي تخيف أوروبا)، كما أن الإسلام العائق الأول أمام تقدم انتشار النصرانية في دول العالم، يقول مستر (بلس): (إن الدين الإسلامي هو العقبة القائمة في طريق تقدم التبشير بالنصرانية في أفريقيا)^(١).

(٣) تفريق كلمة المسلمين والحيلولة دون وحدتهم وتخلصهم من سيطرة الغرب عليهم، يعبر عن هذا المنصر القس (سيمون) في قوله: (إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب الإسلامية، وتساعد على التملص من السيطرة الأوروبية، والتبشير عامل مهم في كسر شوكة الحركة، من أجل ذلك يجب أن نحول بالتبشير اتجاه المسلمين عن الوحدة الإسلامية)^(٢).

(٤) تغريب المسلمين في بلادهم عن طريق التعليم الذي اعتنى به التنصير لإيجاد أجيال تنتمي إلى الإسلام اسماً، وتحمل فكر الغرب حقيقة، وتمارس عاداته بعيداً عن تعاليم الإسلام وأحكامه، يقول (تاكلي): (يجب أن نشجع إنشاء المدارس على النمط الغربي العلماني؛ لأن كثيراً من المسلمين قد زرع اعتقادهم بالإسلام والقرآن حينما درسوا الكتب الغربية، وتعلموا اللغات الأجنبية)^(٣).

القضية الخامسة: الاستعمار

تعريف الاستعمار:

أ- في اللغة: فرض السيادة على الأرض واستغلالها^(٤).

ب- في الاصطلاح: سيطرة دول الغرب على دول الشرق، أي العالم الإسلامي بقصد الاستيلاء على خيراته والسيادة على أهله وتوجيه كل ذلك لخدمة مصالحهم^(١).

(١) نحو ثقافة إسلامية أصيلة لعمر سليمان الأشقر/١٢٧.

(٢) نحو ثقافة إسلامية أصيلة لعمر سليمان الأشقر/١٢٧.

(٣) التبشير والاستعمار للخالدي/٦٦.

(٤) المعجم الوسيط/٦٢٧.

تاريخ الاستعمار:

كان أول من نادى بالحروب الصليبية على المسلمين (البابا أوربان الثاني) الذي تولى كرسي البابوية سنة ١٠٨٨م، ومهد لهذه الحروب، وحشد لها الجموع من رجال الدين والساسة والعامة، وأجج نارها في أصقاع أوروبا، وقد امتدت ما يقرب من تسعة قرون منذ الحملة الصليبية الأولى على العالم الإسلامي التي قادها بطرس الراهب سنة (٤٩١ هـ - ١٠٩٧م) وتمكن من السيطرة على الأراضي المقدسة في بلاد الشام، إلى الحملة الصليبية الثامنة بقيادة لويس التاسع سنة ١٢٤٩-٦٥٢م، الذي أسر في معركة المنصورة سنة ١٢٥٠م، ونبّه إلى عدم جدوى الصدام العسكري مع المسلمين في ذلك الحين ونادى بالغزو الفكري لعقيدتهم وأخلاقهم وفكرهم.

وقد استطاعت الحروب الصليبية التي استمرت زهاء قرنين في المشرق استنزاف جميع القوى البشرية والمادية في منطقة الشام ومصر، وفرض سيادتها على أجزاء من البلاد الإسلامية منها بيت المقدس وما حوله من الأراضي المباركة، إلا أن الله هباً لهذه الأمة أسرة آل زنكي التي تمكنت من قيادة المسلمين لمواجهة الصليبيين وهزيمتهم وتوحيد الأمة الإسلامية ابتداءً من نور الدين محمود زنكي المتوفى سنة (٥٦٩ هـ) وانتهاءً بالقائد صلاح الدين الأيوبي الذي كسر شوكة الصليبيين واستعاد بيت المقدس سنة (٥٨٣ هـ - ١١٨٧م) في معركة حطين، ويمكن القول إن هذه الفترة الزمنية اتسمت بروح التحدي والمقاومة والدعوة إلى الجهاد في سبيل الله^(١)، التي اعترف بها بعض الكتاب الغربيين مدركين أنها السد المنيع أمام تحقيق الصليبيين أهدافهم، يقول (شتر): (جهد الصليبيون طوال قرنين لاستعادة الأرض المقدسة من أيدي المسلمين المتعصبين، فكان عهد الحروب الصليبية من أجل ذلك وأروع العهود في العصور الوسطى كلها، ولكن ذلك

(١) الغزو الفكري لعلي عبد الحميد محمود/ ١٦٧.

(٢) حاضر العالم الإسلامي لجميل عبد الله المصري / ٦٦.

الجهد قد خاب وتراجعت الحملة الصليبية أمام سدود عتيدة من التعصب الإسلامي^(١).

وباءت الحملات الصليبية بالفشل، وارتدت على أعقابها خائبة، ولم تلبث الأمة أن تولت قيادتها الدولة العثمانية التي حفظت العالم الإسلامي من أخطار محاولة الغزو العسكري الغربي؛ بل عملت على توسيع رقعة البلاد الإسلامية ونشر الإسلام في أوروبا، حتى تمكنت من فتح القسطنطينية قلعة الدولة الرومانية الشرقية^(٢) عام ١٤٥٣م، فحال ذلك أوروبا وقض مضجعها، وضاعت ذراعاً ساعية إلى بحث هذا الأمر الذي تعارفوا عليه بالمسألة الشرقية للوصول إلى خطة توقف هذا الامتداد الذي بلغ فينا واستولى على جنوب فرنسا، وسيطر على غالب ما يُعرف بأوروبا الشرقية، فكان لابد من التفكير في الغزو العسكري من جديد بعد أن هيات له العوامل الأخرى من تبشير واستشراق الأرضية الملائمة، وبعد أن دبّت الهزيمة النفسية في قلوب المسلمين مغترين ببهرج التقدم المادي في أوروبا، وبعد أن شاخت دولة الخلافة العثمانية، وظهر عليها مظاهر الضعف، فكانت الخطة الغربية تقتضي تقطيع جسم الخلافة الإسلامية أولاً ثم الإجهاز عليها، فتنافست الدول الأوروبية في استعمار العالم الإسلامي، وعلى الأخص بريطانيا وفرنسا وروسيا متخذة أسلوب الحماية العسكرية قبل الحرب العالمية الأولى وسيلة للتنمويه على الشعوب الإسلامية وتفادي روح المعارضة، ورغم أن هذه المعاهدات كانت تظهر على أنها بين طرفين متساويين لكن الحقيقة هي سيطرة الدول المستعمرة وسيادتها عسكرياً وفكرياً على أهالي وأراضي البلاد المستعمرة، ثم اتخذت هذه الدول أسلوب الوصاية والانتداب بعد الحرب العالمية الأولى لتكتسب الشرعية في تنفيذ مخططاتها، وقد سيطرت الدول الأوروبية على العالم الإسلامي، على النحو الآتي بيانه:

(١) **بريطانيا:** استعمرت ماليزيا وشبه القارة الهندية وساحل الخليج العربي واليمن ومصر والسودان وجزءاً من الصومال وأريتريا

(١) التنصير والاستعمار لعمر فروخ، و مصطفى خالدي / ١١٤.

(٢) العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي لأنور الجندي / ٣٨٣.

وقبرص ونيجيريا، وبعد الحرب العالمية الأولى أضافت إليها العراق والأردن وفلسطين.

(٢) **فرنسا:** استعمرت مالي وتشاد والسنغال وموريتانيا والمغرب والجزائر وتونس وجيبوتي، وبعد الحرب العالمية الأولى أضافت إليها سوريا ولبنان.

(٣) **إيطاليا:** استعمرت ليبيا وجزءاً من الصومال.

(٤) **روسيا:** استعمرت تركستان والأراضي الإسلامية في الأورال وحوض نهر الفولجة وشبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز إلى شمال إيران.

(٥) **أسبانيا:** استعمرت الرّيف المغربي والصحراء المغربية.

(٦) **هولندا:** استعمرت أندونيسيا^(١).

وقد استخدمت الدول الاستعمارية كل ما لديها من وسائل القوة لمواجهة كل من يقاومها، ويعيق سيطرتها على العالم الإسلامي، وتحقيقها أهدافها الصليبية التي صرح بها عدد من قادة الدول الاستعمارية، منهم (الأنبي القائد العسكري الانجليزي) الذي قال في خطبته لما دخل القدس: (الآن انتهت الحروب الصليبية)، وفي تهنئة (لويد جورج وزير خارجية بريطانيا للنبي) لإحرازه النصر سمي هذه الحرب بالحرب الصليبية الثامنة^(٢)، وعندما دخل الجنرال (غورو القائد العسكري الفرنسي) دمشق طلب أن يدلوه على قبر صلاح الدين الأيوبي رحمه الله؛ فلما وقف على قبره ركله بقدمه قائلاً: (ها قد عدنا يا صلاح الدين)^(٣).

أهداف الاستعمار:

(١) **هدف صليبي (هدف للكنيسة):** يحقق ما عجزت عن تحقيقه الحملات الصليبية إبان القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين،

(١) حاضر العالم الإسلامي لجميل عبد الله المصري / ٨١-٨٢.

(٢) قادة الغرب يقولون / ٢٦.

(٣) القومية والغزو الفكري / ٨٤.

وهو السيطرة على البلاد الإسلامية وانتزاع بيت المقدس من المسلمين والذي كانت الدول الغربية في القرن التاسع عشر الميلادي تسعى إليه، كما أوضح ذلك القائد البريطاني (أدموند هنري ألنبي) الذي قاد الحملة البريطانية من مصر لغزو فلسطين سنة ١٩١٧م، حين استولى على بيت المقدس، وقال كلمته المشهورة: (الآن انتهت الحروب الصليبية)^(١).

(٢) هدف سياسي (يتعلق بالدول والحكام أنفسهم): نشأ عن التنافس بين الدول الغربية في السيطرة على المواقع الاستراتيجية ومناطق الثروات المعدنية والزراعية وبسط النفوذ على أكبر قدر من المساحة، ونظراً لما تتمتع به البلاد الإسلامية من موقع استراتيجي يقع في وسط العالم ويتصل بالقارات الثلاث: آسيا وأفريقيا وأوروبا، ويتحكم بممرات الملاحة العالمية من المحيط الهندي إلى البحر الأحمر إلى البحر الأبيض المتوسط، ويمثل مضيق جبل طارق ومضيق باب المندب ومضيق هرمز أهم بوابات الملاحة العالمية التي سيطرت على الحركة البحرية والتجارية والعسكرية، ولاتساع العالم الإسلامي فهو يحتوي على معظم المعادن والحاصلات الزراعية التي تعتمد عليها المدنية الحديثة مما جعل البلاد الإسلامية في مطمعا للدول الغربية والاستعمارية ولرغباتها.

(٣) هدف اقتصادي: نتج عن الثورة الصناعية التي نشأت في أوروبا في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي وأحدثت سلسلة من التغييرات في أساليب الصناعة منها الاعتماد على الآلات في الإنتاج، وفي القرن التاسع عشر الميلادي زاد الإنتاج زيادة هائلة فاحتاج أصحاب المصانع إلى المواد الخام والقوى العاملة كما احتاجوا إلى الأسواق لتصريف منتجاتهم، ولم تتمكن الدول الأوروبية من سد تلك الحاجات كلياً مما دفعها إلى الاستعمار للحصول على المواد الخام وفتح أسواق جديدة أمام منتجات صناعاتها، فكان العالم الإسلامي هدفاً تنافست عليه الدول الأوروبية الصناعية^(٢).

(٤) هدف عدائي: يعود إلى ما انطوت عليه قلوب النصارى من حسد وبغض للأمة الإسلامية التي ناصبوها العداء منذ نشأتها، وعملوا

(١) الغزو الفكري لعلي عبد الحميد محمود/ ١٦٧.

(٢) حاضر العالم الإسلامي لجميل عبد الله المصري ٧٧/١.

على القضاء عليها بشتى الوسائل العسكرية والفكرية عن طريق الحملات الصليبية ثم الاستشراق والتنصير، وبعد الاستعمار حلقة أخرى في سلسلة حلقات العداء المتتالية، لذا فإن الدول الاستعمارية سعت إلى مسح الإسلام من قلوب المسلمين والاستخفاف به وبعلمائه بوسائل مباشرة وغير مباشرة، وتغريب الأمة وتعطيل أحكام الإسلام ومحاصرة التعليم الديني ومحاربة كل المظاهر المتصلة بالإسلام، وإخماد كل الحركات الإصلاحية الداعية إلى الوحدة الإسلامية —————
أو إلى العودة إلى الإسلام من جديد.
آثار الاستعمار الثقافية:

(١) تغريب العالم الإسلامي ؛ فقد كان الغرب يسعى في مستعمراته، وفي مناطق نفوذه إلى نشر ثقافته بين المسلمين، وحملهم عليها، وذلك رغبة منه في جسر الهوة التي تفصل بينه وبين المسلمين نتيجة لاختلاف الثقافتين ونتيجة للمرارة التي يشعر بها المسلم تجاه المحتل لبلاده، وصيانة لمصالحه ؛ فقد نشأت عند ساسة الغرب ومخططي الاستعمار قاعدة سياسية حديثة تدعو إلى الاعتماد على الصداقة في حفظ المصالح الاقتصادية بدلا من الاعتماد على القوة، وهو ما يسمونه بالتغريب^(١).

(٢) إحياء النعرات القومية، كالطورانية في تركيا والفرعونية في مصر والبابلية في العراق والآشورية والفينيقية في الشام، والبربرية في شمال أفريقيا والقومية العربية وتشجيعها لتكون بديلاً عن الفكر الإسلامي وإشغال الأمة بتمجيدها والافتخار بها، مع تجهيل المسلمين بتاريخهم الإسلامي المجيد.

(٣) زرع أسباب الفتنة والخلاف بين المسلمين مثل مشاكل الحدود بين البلاد الإسلامية، مثل مشكلة كشمير المتنازع عليها بين الهند وباكستان لتبقي الفتيل الذي يمكن إشعاله.

(٤) حماية الإرساليات التنصيرية ودعمها للقيام بعملها وتحقيق أهدافها وتبرير إفسادها لعقائد المسلمين، وكأن الاستعمار بذلك يرد لها اليد

(١) أزمة العصر لمحمد محمد حسين / ١٧٥.

التي سلفت لها عنده، بل إنه شجع على اعتناق النصرانية وحمل الجنسية الأجنبية ورتب على ذلك كثيراً من الامتيازات^(١).

القضية السادسة: التغريب

تعريف التغريب:

أ- **فالمغة:** مصدر من غَرَّب، يقال: غرب في الأرض أي سافر سافراً بعيداً، أو اتجه نحو الغرب^(٢).

ب- **في الاصطلاح:** إعادة صياغة ثقافة العالم الإسلامي وفق ثقافة الغرب وحضارته. والتغريب يعد تياراً فكرياً ذا أبعاد سياسية واجتماعية وفنية، يهدف إلى إلغاء شخصية المسلمين الخاصة، وجعلهم أسرى الثقافة الغربية^(٣).

تاريخ التغريب:

ظهرت بدايات التأثير بمظاهر الحضارة الغربية في أواخر عهد الخلافة العثمانية عندما أرادت تطوير جيشها على وفق النظام الأوروبي، فقد أمر السلطان محمود الثاني عام ١٨٢٦م العسكريين بلبس الزي العسكري الأوروبي، كما استقدم السلطان سليم الثالث المهندسين من السويد وفرنسا والمجر وانجلترا وذلك لإنشاء المدارس الحربية والبحرية، ولم يقتصر الأمر على هذا الاتجاه الذي لا غضاضة فيه إذ هو في نطاق ما ييحه الإسلام من الاستفادة من الوسائل الحديثة والنظم النافعة دون مساس بثوابت المجتمع الإسلامي ومبادئه وقيمه؛ بل اتخذ التغريب اتجاهاً آخر لنشر أفكاره وحمل الناس على تبني مفاهيمه عن طريق إنشاء مدارس الإرساليات التنصيرية بلبنان ومصر التي كانت مفتوحة لأبناء المسلمين للتعليم وفق منهج التعليم الغربي، وكان نصارى الشام من أوائل من اتصل بالإرساليات التنصيرية، وسارع إلى تلقي الثقافة الفرنسية، كما أظهروا إعجابهم بالغرب، ودعوا إلى السير على طريقه، وقد ظهر ذلك جلياً في

(١) الغزو الفكري لعلي عبد الحميد محمود / ١٧٠.

(٢) المعجم الوسيط / ٦٤٧.

(٣) الموسوعة الميسرة، إصدار الندوة العالمية للشباب الإسلامي ١٤٥/١.

مقالاتهم التي كتبوها في الصحف التي أسسوها وعملوا فيها مثل صحيفة الجنان والمقتطف في بيروت، وجريدة المقطم والأهرام التي أسسوا تحريرها في القاهرة، وعن طريق التشجيع على البعثات إلى أوروبا؛ فقد قام محمد علي والي مصر بابتعاث عدد من خريجي الأزهر إلى أوروبا من أجل التخصص، وتوسع في ذلك الخديوي إسماعيل بهدف جعل مصر قطعة من أوروبا، وكان ممن ابتعثوا من مصر إلى باريس عام ١٨٢٦م رافع رفاة الطهطاوي الذي أقام فيها خمس سنوات، ومن تونس ابتعث إلى باريس عام ١٨٥٢م خير الدين التونسي الذي أقام فيها أربع سنوات، وعاد كل منهما محملاً بأفكار تدعو إلى تنظيم المجتمع الإسلامي على أساس علماني عقلاني.

وقد أثر التيار التغريبي في فكر كثير من القادة والمفكرين، وتمكن من إعادة صياغة مفاهيمهم وفق الثقافة الغربية حتى ظن هؤلاء أن التقدم الذي حققه الغرب عائد إلى تصوراتهم ومفاهيمهم وأسلوب حياته البعيدة عن الدين مما دفعهم إلى الدعوة إلى اللحاق بالحضارة الغربية والاندماج في ثقافة المجتمع الغربي، يقول آغا أوغلي أحمد أحد زعماء الكماليين في تركيا: (إننا عزمنا على أن نأخذ كل ما عند الغربيين حتى الالتهاجات التي في رؤيتهم، والنجاسات التي في أمعائهم)^(١)، وممن نادى بالسير على طريق الحضارة الغربية عميد الأدب العربي آنذاك طه حسين واصفا إياها بأنها (واضحة بينة مستقيمة ليس فيها اعوجاج ولا التواء، وهي أن نسير سيرة الأوروبيين، ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا، ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب)^(٢)، ومن المؤسف أن دعاة التغريب من المتأثرين بالحضارة الغربية قد جهلوا أو تجاهلوا أن سبيل الحضارة والرقى لم يكن يوما ما ولن يكون بالذوبان في حضارة الغرب وثقافته^(٣) والتخلي عن الثقافة الإسلامية.

أهداف التغريب:

(١) مؤامرة فصل الدين عن الدولة لمحمد كاظم حبيبي/٦٩.

(٢) مستقبل الثقافة في مصر فقرة ٩.

(٣) نحو ثقافة إسلامية أصيلة للدكتور/ عمر سليمان الأشقر /٨١-٨٢ .

(١) **نقض عرى الإسلام وإبعاد المسلم عن دينه:** لقد كان الهدف إضعاف شأن الإسلام في نفوس المسلمين، وإزاحته من قلوبهم وحياتهم، وقطع صلتهم بمصادره ولاسيما القرآن الكريم، يقول (الماريشال بيار ليوتي) قائد جيش الاحتلال الفرنسي في المغرب: يجب أن نبعد سكان المغرب عن كل ما يطلق عليه لفظ الإسلام، ولا نترك القرآن يثبت في أذهانهم^(١)، وكذلك تجهيل المسلمين باللغة العربية حتى تنقطع صلتهم بالقرآن الكريم والسنة النبوية ومؤلفات السلف من علماء المسلمين، يقول الحاكم الفرنسي للجزائر في ذكرى مرور مائة على الاحتلال: (إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرؤون هذا القرآن، ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم، ونقتلع اللسان العربي من أفواههم)^(٢)، ويقول (وليم جيفورد بالكراف): (متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا أن نري العربي حينئذ يتدرج في سبل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه^(٣)).

(٢) **تفتيت الوحدة الإسلامية:** سعى الغرب إلى إيقاظ النعرة العنصرية وصرف المجتمعات الإسلامية عن الإسلام بصفته عاملاً لوحدهم، وكان المدعو (توماس إدوارد لورنس براون المسمى: بلورنس العرب) دوراً حاسماً في تنظيم هذه المؤامرة على الوطن العربي^(٤). كما يحدث بنفسه عن خواطره حين بدأ يتنقل بين العرب، يقول (أخذت طول الطريق أفكر ... وأتساءل: هل تتغلب القومية ذات يوم على النزعة الدينية؟ وهل يغلب الاعتقاد الوطني الاعتقاد الديني؟ وبمعنى أوضح، هل تحل المثل العليا السياسية مكان الوحي والإلهام، وتستبدل سوريا مثلها الأعلى الديني بمثلها

(١) مجلة المنار المجلد ٣١ / ٣٠٠.

(٢) مجلة المنار المجلد ٩ / ١١ عام ١٣٦٢هـ.

(٣) الغارة على العالم الإسلامي / ٩٣.

(٤) الأعلام للزركلي ٩٤/٢.

الأعلى الوطني؟^(١) لقد كانت هذه الخواطر تنبئ عن عرض للتوقعات إزاء سبيل تحقيق أحد أهداف الغرب الرئيسية كما يصرح بها (لورنس العرب) في قوله: (أهدافنا الرئيسية تقتيت الوحدة الإسلامية ..)^(٢).

٣) إقصاء أنظمة الحكم والإدارة والتعليم المستمدة من الإسلام، وإحلال الأنظمة الغربية مكانها: عمل الغرب على إبعاد أنظمة الحكم والإدارة وبرامج التعليم عن الإسلام وشريعته وأساليبه التعليمية والتربوية من خلال ما سماه: نهضة الإسلام الحديثة، يقول (ريني ميي) المقيم العام الفرنسي بتونس في مؤتمر شمال أفريقيا عام (١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م): النتيجة التي يسعى الغرب إلى تحقيقها هو تفكيك ما بين العقائد وأصول الحكم^(٣)، ويقول المستشرق (جب) مشير إلى أهمية التعليم في هذا الصدد: (السبيل الحقيقي للحكم على مدى التغريب هو أن نتبين إلى أي حد يجري التعليم على الأسلوب الغربي وعلى المبادئ الغربية وعلى التفكير الغربي. والأساس الأول في كل ذلك هو أن يجري التعليم على الأسلوب الغربي وعلى المبادئ الغربية وعلى التفكير الغربي .. هذا هو السبيل الوحيد ولا سبيل غيره، وقد رأينا المراحل التي مر بها طبع التعليم بالطابع الغربي في العالم الإسلامي، ومدى تأثيره على تفكير الزعماء المدنيين وقليل من الزعماء الدينيين)^(٤)، ولتحقيق هذا الهدف تم تسليم مواقع التأثير المتمثلة بالحكم والإدارة وسدة التعليم في البلاد الإسلامية للمبهرين من المسلمين بالحضارة الغربية، المتخلفين بأخلاق أوروبا، لأنهم أقدر على إحداث تغيير يتفق مع الثقافة الغربية؛ هذه الفئة هي التي تصلح وفق تقرير اللورد (كرومر) المندوب البريطاني في مصر لأن تحكم إذ (أن المسلم غير المتخلف بأخلاق أوربية لا يصلح لحكم مصر، كما أكد أن المستقبل الوزاري سيكون للمصريين المتربين تربية أوربية؛ ... أن

(١) الاتجاهات الوطنية لمحمد محمد حسين ١٠٧/٢.

(٢) الوقائع السرية في حياة لورنس العرب ٥٢/.

(٣) الحركة الأدبية والفكرية لابن عاشور ١٠٨/.

(٤) الاتجاهات الوطنية لمحمد محمد حسين ٢١٦/٢.

المتفرنجين من المصريين ... أصلح الناس للتعاون مع الإدارة
الانجليزية^(١).

٤) إعادة بناء فكر المسلمين على أساس تصورات الفكر الغربي ومقاييسه، ومحاكمة الفكر الإسلامي وفق هذه التصورات والمقاييس بهدف سيادة الحضارة الغربية^(٢)، وقد أثمرت هذه المحاولة بكثرة التناول للقضايا والمفاهيم، وتنوع الأساليب حتى أحدثت انقلاباً فكرياً في تصورات الطلائع المثقفة من المسلمين ومفاهيمها، وتمكنت من عزلهم أو تحييدهم عن مواجهة هذه المحاولة؛ بل انجرف بعضهم مع التيار التغريبي فصاروا يهاجمون دينهم، ويسخرون منه، وكان هذا إيذاناً بقيام مدرسة فكرية جديدة تنطلق مما جاءت به الحضارة الغربية من أفكار وفلسفات ونظريات في ميادين الحياة، وكان عماد هذه المدرسة تفسيراً عصرياً يلائم الفكر الغربي، ويعمل على إيجاد نقاط التقاء بين الثقافتين الإسلامية والغربية رغم تباينهما، أو على الأقل تباعدهما، كما لجأت هذه المدرسة إلى عد بعض الأحكام مثل تعدد الزوجات والطلاق والحدود والربا مثالب تحتاج إلى تعديل وفق ما يقتضيه التطور البشري وتجديد الإسلام في رؤية حديثة يظهر فيها أثر ضغط الفكر الغربي على العقول المهزومة المنبهرة بالحضارة الغربية^(٣).

٥) صبغ حياة المسلمين في جميع جوانبها ومرافقها بصبغة الحضارة الغربية، وتغيير عاداتهم بما يتوافق مع عادات المجتمعات الغربية، ولا بأس ببقاء الانتماء إلى الإسلام اسماً في حين يستسلم الواقع في كل مظاهره للفكر الغربي، مما أدى إلى إيجاد مجتمعات إسلامية تتعامل وفق العادات والتقاليد الغربية، وكان من مظاهر ذلك: الاختلاط بين الجنسين وإلغاء الحجاب عن

(١) الاتجاهات الوطنية لمحمد محمد حسين ١/٢٦١-٢٦٢.

(٢) نحو ثقافة إسلامية أصيلة للدكتور / عمر سليمان الأشقر/ ٨٠.

(٣) الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام للدكتور عبد الستار سعيد / ٩٢-٩٣.

المرأة، والتحلي بالآداب الغربية في التحية والطعام واللباس ونحو ذلك.

٦) هذه أبرز أهداف التغريب، على أن أخطرها وأعظمها ضررا ما كان متصلا بالدين نفسه، وما كان يقصد منه فك عرى المجتمع ونقض الأسس التي يقوم عليها، وإقحام ذلك كله في عقول الناس وحياتهم باسم التجديد والتطوير^(١).

وسائل التغريب:

١) **الوسائل المباشرة:** تم تكريس التغريب بشكل مباشر بعد إخضاع غالب البلدان الإسلامية لسلطان الحكم العسكري والسياسي والثقافي الغربي، والقضاء على هويتها الذاتية وتوجيهها الوجهة الغربية، فقد أرخى الاحتلال للمنصرين العنان، فصاروا يسرحون ويمرحون، ويستخدمون كل الوسائل لتنصير المسلمين أو تحقيق ردتهم، ومكنهم من بناء الكنائس والمدارس والمستشفيات لتحقيق أغراضهم، كما دعم المستشرقين وسهل مهمتهم لجمع المعلومات عن الشرق الإسلامي ونشر مطبوعاتهم المغرضة بهدف تشويه صورة الإسلام في نفوس أهله، كما أسس المدارس المدنية التي تمجد الفلسفة الغربية وتجهل المسلمين بدينهم ولغتهم وتاريخهم، وأفسح المجال للأقليات غير المسلمة لتعمل ضد وحدة المسلمين، وأدخل القوانين الأوروبية وأقصى العمل بالشرعية في المحاكم، وشجع على نشر الإباحية والعادات والموضات الغربية وغير ذلك مما قام به الاحتلال الأوروبي لتغريب الشعوب الإسلامية ولم يزل العالم الإسلامي يعاني من آثارها المدمرة لهويته وثقافته الإسلامية^(٢).

٢) الوسائل غير المباشرة:

(١) الاتجاهات الوطنية لمحمد محمد حسين ٢/٢٨٧.

(٢) انظر كتاب: المغرب العربي .. دراسة في تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصرة لصالح العقاد. وذلك للوقوف على الحالة التي وصل إليها التغريب في دول المغرب العربي.

أ- **تقديم الخبرة والمشورة:** اتخذ من تقديم الخبرة والمشورة غطاءاً للتدخل في السياسات والأوضاع الداخلية للعالم الإسلامي عن طريق السفراء والقناصل والخبراء الذين يعدون طلائعاً للتغريب في كثير من البلدان الإسلامية كما يظهر من عملهم، فقد قام الضابط الفرنسي (الكونت دي بونجال) الذي قدم إلى استانبول لتقديم الخبرة العسكرية ضمن مشروع تطوير القوة العسكرية للدولة العثمانية عام (١١٣٠هـ - ١٧١٨م) بالتواصل المباشر مع الطبقة الحاكمة لتثقيفهم في المسائل السياسية والتقاليد الدبلوماسية وحثهم على الانفتاح على أوروبا، وتحديث مؤسسات الدولة على النمط الغربي، وهو النهج الذي استمر وتعزز بالتدريج حتى وقعت تركيا في براثن التغريب، وهذا ما وقع في كثير من بلدان العالم الإسلامي بعد تحررها من الاستعمار حيث تم التدخل في رسم سياساتها الاقتصادية والتعليمية.

ب- **تجهيل المسلمين بلغتهم ونشر اللغات الغربية بينهم:** اللغة العربية الفصحى هي لغة القرآن والسنة النبوية والتراث الإسلامي ولغة الصلاة وشعائر الإسلام، لها أثر كبير في توحيد المسلمين على اختلاف أجناسهم وبلدانهم لذلك كانت غرضاً مباشراً للتغريب من أجل تجهيل المسلمين بتعاليم دينهم وصرفهم عنها، فقد تم محاصرة تعليم اللغة العربية الفصحى في حلقات المساجد ومدارس التعليم الديني وتقليص تدريسها في المدارس المدنية والدعوة إلى لاستغناء عنها باللغة العامية التي تمثل مجموعة من لهجات تختلف من بلد إلى آخر، ولا يفهم ألفاظها إلا أهلها، وبذلك تنقطع صلة التفاهم بين بلدان العالم الإسلامي، وكذلك عمد أصحاب التيار التغريبي إلى التوسع في تعليم اللغات الأوروبية لتكون نافذة لتسرب الثقافة الغربية إلى عقولهم وحياتهم^(١)، ففي مصر دعا القاضي (ولمور) أن تكون اللهجة العامية لغة للعلوم والآداب، وإلى كتابتها بالحروف اللاتينية، وفي الجزائر ورد في تقرير رسمي للاحتلال الفرنسي عام (١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م) ما نصه: (إن أهم ما يجب أن يسعى إليه

(١) نحو ثقافة وسطية راشدة للدكتور/ محمد اليحياوي/ ٢٩٠.

الفرنسيون في الجزائر هو جعل اللغة الفرنسية دارجة وعاملة بين الجزائريين ... بل جعلهم فرنسيين من حيث اللغة^(١).

ج- **إنشاء المدارس المدنية:** اتخذ التغريب من التعليم في البلدان الإسلامية وسيلة في صرف الناشئة عن انتمائهم الأصل، وتزويدهم بالأفكار والثقافة الغربية، وتوجيههم نحو الولاء للحضارة الغربية، وقد عبروا عن نياتهم في تغريب أبناء المسلمين عن طريق تعليمهم المبادئ الغربية، يقول اللورد (لويد) المندوب البريطاني على مصر في خطبته التي ألقاها في كلية فكتوريا بالإسكندرية عام (١٣٤٥هـ - ١٩٢٦م): (ليس من وسيلة لتوطيد الرابطة بين البريطانيين والمصريين أفعل من كلية تعلم الشبان من مختلف الأجناس المبادئ البريطانية العليا ... فيصيروا قادرين أن يفهموا أساليبنا ويعطفوا عليها ... وينمو فيهم من الشعور الانجليزي ما يكون كافيا لجعلهم صلة للتفاهم بين الشرقي والغربي)^(٢)، ولخطورة هذه الوسيلة وقوة تأثيرها سارع الاحتلال إلى استثمار التعليم ورسم سياسته نحو تحقيق أهداف التغريب، فقد رسم القس (دنلوب) سياسة التعليم في مصر، ونفذها هو وتلاميذه من بعده، ومن المؤسف أن هذه السياسة لا تزال لها آثار وذيول تطبع جوانب التعليم في مصر بطابع التعليم الغربي إلى الآن^(٣).

د- **تحرير المرأة:** نالت المرأة في الإسلام حقوقها منذ أن نزل الوحي، فهي تساوي الرجل في التكليف بالعبادة والقيام بشرع الله تعالى واتباع منهجه، وثبتت لها جميع الحقوق المدنية، فلها أن تبيع وتشترى وتمارس كافة العقود المباحة، ولها الحق في التعلم والتعليم، ولها حق العمل في حدود الحشمة والوقار؛ إلا أن المرأة نظرا لمكانتها وتأثيرها القوي في الحفاظ على ثقافة المجتمع الإسلامي ونقل مكوناتها إلى الناشئة وتربيتها على مبادئ الإسلام وقيمه كانت هدفا لدعاة التغريب الذين دعوا إلى سلخ المرأة عن دينها ودعوا إلى محاكاة المرأة الغربية ومجاراتها في العادات والتقاليد باسم تحرير المرأة، وطالبوها بخلع حجابها ومخالطة الرجال الأجانب في ميادين التعليم والعمل، كما دعوا إلى إباحة

(١) دراسات في اللغة والحضارة، مجموعة دراسات / ٣١.

(٢) الاتجاهات الوطنية لمحمد محمد حسين ٢/ ٢٨٦.

(٣) الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام للدكتور/ عبد الستار سعيد/ ٦٩.

زواجها بالكفار ومنع تعدد الزوجات وتقييد الطلاق وإيقاعه في المحاكم، وكان النصراني المتعصب (فهيم مرقص) أول من طرح هذه المطالب، وذلك عام ١٨٩٤م في كتاب له سماه (المرأة والشرق)^(١)، ومن المؤسف أن المرأة المسلمة التي كانت تنعم بكرامتها وحقوقها استخدمت باسم التحرير والتطور مصيدة لجمع المال، ومطية لتحصيل المتعة، ووسيلة للدعاية التجارية؛ فنقلت من وظيفة تدبير المنزل ورعاية الزوج والأولاد إلى العمل الطويل بعيدا عن المنزل في المتاجر والمزارع والمصانع مما أدى كما يقول (برتداند راسل) إلى انحلال الأسرة وخروج المرأة عن التقاليد والأخلاق المألوفة وعدم الوفاء للزوج^(٢)؛ إضافة إلى ترك الحمل أو الحد من الإنجاب؛ بل بلغ التأثير بالغرب درجة التساهل في حفظ العرض والوقوع في الفاحشة والجرأة على قتل الأجنة بسبب استباحة العلاقات غير الشرعية، لقد كانت جناية دعاة التحرير على المرأة كبيرة فقد خرجت كاسية عارية تعرض مفاتنها على الرجال، وتحولت إلى سلعة تباع بأبخس الأثمان، واضطرت إلى العمل في أعمال شاقة لا تناسب طبيعتها^(٣) في حين أن نفقتها في الإسلام مأكفولة لها بكرامة، وبدون مشقة، فهي تجب على الرجل سواء أكان أباه أم أخاه أم زوجها أم ابنها.

هـ- **السيطرة على الصحافة:** التي كانت تعمل على تطوير الإسلام وإيجاد تفسير جديد له يخدم أهداف التغريبيين، ويقوي الصلة بهم، وهذا التطوير كان خطرا خفيا انقادت له مجتمعات المسلمين دون إدراك لوجه الخطر فيه؛ إذ حقيقته إفساد لقيم الإسلام ومفاهيمه بإدخال الزيف على الصحيح، وتثبيت الغريب الدخيل (وهو ثقافة الغرب وقيمه) وتأكيد، وكانت السياسة المتبعة هي تمكين الأصدقاء المخدوعين بالحضارة من المسلمين ونصارى العرب من إدارة هذه الصحف، ولا غرابة في الاهتمام بالصحافة فهي كما يقرر (جب) أقوى أدوات التغريب، وأعظمها نفوذا في العالم الإسلامي، ولاسيما أن مديريها ينتمون في معظمهم إلى من يسميهم التقدميين؛ ذلك أن معظم الصحف واقعة تحت تأثير الآراء

(١) نحو ثقافة إسلامية أصيلة للدكتور/ عمر سليمان الأشقر/ ٨٣-٨٥.

(٢) حقوق المرأة للدكتور/ سعيد رمضان البوطي/ ٣٦-٣٧.

(٣) نحو ثقافة إسلامية أصيلة للدكتور/ عمر سليمان الأشقر/ ٨٤ - ٨٥.

والأساليب الغربية، ويقول: إنهم لا يلعبون دوراً مهماً في تشكيل الرأي العام بالقياس إلى الأحداث المحلية فحسب، ولكن صحفهم تحتوي كذلك على مقالات تشرح الحركات السياسية والاقتصادية في أوروبا، ومقالات مترجمة من الصحف الأوروبية. ثم هم يقفون الرأي العام على ما يجري في الغرب من أحداث وما يستحدث من آراء، مبينين مدى ذلك في بلاد الشرق^(١).

و- **تطوير الفكر الإسلامي:** مع بداية القرن العشرين تحول اهتمام المستشرقين في دراساتهم نحو تطوير الفكر الإسلامي، وهي دراسات موجهة هادفة، تساهل تطور السياسة الاستعمارية في البلاد الإسلامية، واتجاهها إلى التغريب، وهذا ما يوضحه (سميث) في كتابه: (الإسلام في التاريخ الحديث) الذي صدر عام ١٩٥٧م من أن الإسلام يجتاز مرحلة تحول وتغير خطيرة، وأن دراسة هذا التطور تعني المسلمين لكي يشاركوا في تطوير حياتهم مشاركة واعية، ويرى أن ذلك ضروريا لترويج مفاهيم التحرر والعلمانية والعالمية^(٢) في العالم الإسلامي.

آثار التغريب:

استطاعت حركة التغريب التغلغل في كل بلاد العالم الإسلامي، وترك بصماتها على كل مظاهر الحياة، والتأثير في فكر المجتمع الإسلامي وسلوك أفراده، وقد تفاوت حجم التأثير من بلد إلى آخر، فظهر بوضوح في مصر وبلاد الشام وتركيا وأندونيسيا والمغرب العربي^(٣)، وكان من أبرز هذه الآثار ما يأتي:

- (١) زعزعة اعتقاد المسلم ودفعه إلى ترك الالتزام بأحكام الإسلام.
- (٢) تكريس التبعية للغرب في كل توجهات المسلمين وممارساتهم.
- (٣) منع تطبيق الشريعة الإسلامية.
- (٤) إعاقة العمل نحو الوحدة الإسلامية.

(١) الاتجاهات الوطنية لمحمد محمد حسين ٢/٢١٧.

(٢) أزمة العصر لمحمد محمد حسين ١٨٢/١.

(٣) الموسوعة الميسرة للندوة العالمية للشباب ٢/٧١٥.

٥) إلغاء بعض عادات المجتمع الإسلامي وقيمه وإحلال بعض عادات الغرب وقيمه مكانها.

القضية السابعة: العولمة الثقافية

يزداد الاهتمام العالمي يوماً بعد يوم على مستوى الدول والشعوب بموضوع العولمة ومظاهرها المختلفة، ويكاد هذا الموضوع أن يستحوذ على مساحة كبيرة من الرأي والفكر والحوار والنقاش في وسائل الإعلام والمؤتمرات والندوات الدولية والإقليمية، وهذا يعني أن العولمة من القضايا الساخنة والمثيرة التي تشغل بال كثير من العلماء والمفكرين في الوقت الحاضر، وتجعلهم يتطلعون إلى الإسهام في توضيح حقيقتها وتجلية غموضها وكشف خباياها والإجابة عن ما يثار حولها من تساؤلات واستفهامات، والتعرف على آثارها المستقبلية.

وإذا كانت العولمة قد برزت في مظهرها الاقتصادي والإعلامي فإنها الآن في مرحلة ترسيخ المظهر الثقافي الذي يعد أكثر صعوبة وحساسية من المظاهر الأخرى؛ نظراً لملامسته خصوصيات الأمم والمجتمعات، ومصادمته لتعاليم الأديان وأنماط التقاليد والعادات التي تؤكد على الذاتية والانفراد.

تعريف العولمة:

أ- **في اللغة:** كلمة عولمة مصدر قياسي على وزن فوعلة مشتق من الفعل الرباعي عولم من العالم، مثل حوّل حوالة، وهي كلمة تدل على التغير والتحول من حال إلى حال.

ب- في الاصطلاح: العولمة مصطلح جديد، له عدة مرادفات، هي الكوكبة والكونية الشاملة والحدثة.

هذا المصطلح لم يكن له وجود قبل منتصف عقد الثمانينات الميلادية من القرن الماضي؛ إذ أنه قبل هذا التاريخ لم يكن له حضور خاص؛ بل إن قاموس (إكسفورد) للكلمات الإنجليزية الجديدة أشار إليه لأول مرة عام ١٩٩١م واصفاً إياه بأنه من الكلمات الجديدة التي برزت خلال التسعينات، ثم إنه لو كان موجوداً فيبدو أنه لم يسترّع أي اهتمام أو انتباه، أو أنه كان يعامل معاملة الكلمات العابرة التي لا تشير إلى مفهوم خاص أو واقع خاص؛ لكن الحال تغير بعد التسعينات حيث بدأ

يتكون له مفهوم لم يستقر بعد، وصار من أكثر المصطلحات تناولا وتداولاً ونقاشاً^(١).

ومع هذا التداول المتزايد لا بد من الاعتراف بأن العولمة من حيث الواقع تمثل ظاهرة سياسية واقتصادية وثقافية؛ بل واجتماعية غير محددة المعالم، وغير مجمع على صورتها، ولا مجمع على هيمنتها؛ ولكن يراد لها أن تكون سمة هذا العصر، ومصير الشعوب، وهو ما يمكن استقراؤه من خلال إمعان النظر في تعريفات العولمة الآتية:-

♦ هي: اتجاه الحركة الحضارية نحو سيادة نظام واحد، تقوده في الغالب قوة واحدة.

♦ هي: استقطاب النشاط السياسي والاقتصادي في العالم حول إرادة مركز واحد من مراكز القوة في العالم^(٢).

♦ هي: تحويل العالم إلى قرية واحدة يتحكم فيها نظام رأسمالي واحد، يلزمها بالتخلي عن ديانتها وقيمها وحضارتها شرطاً لتحقيق النجاح في مجال تنمية الاقتصاد والسوق وجودة الأسعار^(٣).

ومن تأمل هذه التعريفات واستقراء مدلولاتها يتبين لنا أن العولمة شاملة لكل النواحي الفكرية والعملية وإن ظهرت في صورة معينة

أو شكل محدد، وأنها ذات أبعاد متعددة ومستقبلية تتناول كل الشعوب، وتسعى لأن تكون بديلاً لكل موروث.

نشأة النظام الجديد (العولمة):

(١) بحث: ظاهرة العولمة الواقع والآفاق للدكتور الحبيب الجحاني، مجلة المعرفة عدد محرم ١٤٢٠هـ / ٥٠.

(٢) العولمة جريمة تدويب الأصالة، للدكتور عبد الصبور شاهين، مجلة المعرفة عدد/ ٤٨، ربيع الأول عام ١٤٢٠هـ، والثقافة العربية وتحديات العولمة، مجلة شؤون اجتماعية عدد/ ٦١، عام ١٤١٩هـ، ص/ ١٤٠.

(٣) مقالة: ذراع جديدة لأخطبوط الغزو الفكري لعبد الناصر محمد مغنم، مجلة المجتمع عدد/ ١٣٢٤، ٢٣/٦/١٤١٩هـ.

بعد انتهاء الحرب الباردة بين القطبين أمريكا والاتحاد السوفييتي التي دامت أكثر من ٤٥ سنة، وإن لم يحدث بينهما حرب عسكرية مباشرة؛ لكن وقعت حروب في العالم بسبب سياساتهما، وتبعية بعض الدول لإحدهما بلغت أكثر من أربعمئة حرب إقليمية، راح ضحيتها أكثر من عشرين مليون نسمة، وفاقت خسائرها المادية خسائر الحربين العالميتين-حدد الرئيس الأمريكي بوش الأب في ١٩٩١/٣/٦م إطار هذا النظام في خطابه الذي ألقاه أمام قوات التحالف في الكويت بعد انتصارها في حرب الخليج الثانية قائلاً: (إننا نرى الآن ظهور نظام عالمي جديد...، عالم أصبح فيه الأمم المتحدة بعد تحررها من الطريق المسدود للحرب الباردة قادرة على تحقيق الرؤية التاريخية لمؤسسيها، عالم تحترم فيه جميع الأمم الحرية وحقوق الإنسان) وقد ركزت وسائل الإعلام على تحليل عبارات هذا الخطاب، وجعلته جديداً، وضخمته كأنه الأمر الواقع الذي لا مفر منه^(١).

لعل الرئيس بوش كان يقصد من تحقيق الرؤية التاريخية قيام وحدة عالمية تتجاوز أسباب الصراع، وتستبعد عوامل التناقض بين الشعوب. وهذا يقتضي التساؤل: علام تقوم هذه الوحدة؟ إن كثيراً من المفكرين والمحللين يرون أنها ستقوم على أساس سيادة النموذج الرأسمالي، ومن هؤلاء المفكر الياباني الأصل فوكوياما الذي اعتبر نهاية الشيوعية وسقوط الاتحاد السوفييتي نهاية للتاريخ بانتصار الرأسمالية^(٢) وحضارتها وانفرادها بالهيمنة العالمية.

وإذا صح هذا الرأي فإن الوحدة التي سيسعى إليها النظام الرأسمالي ستؤدي إلى الحيلولة دون انفراد أي حضارة سوى الحضارة الغربية الانجلوسكسونية بهوية خاصة ومبادئ وقيم ومفاهيم تمثل شخصيتها الظاهرة، وتعبر عن نظرتها للحياة، وتنم عن تصورها للوجود.

دوافع العولمة:

إذا كانت العولمة حديثة من ناحية الاصطلاح فإنها قديمة نوعاً ما من الناحية العملية؛ ذلك أن محاولة الهيمنة على الأسواق العالمية

(١) النظام العالمي الجديد من منظور إسلامي للدكتور علي محيي الدين القره داغي/

(٢) العولمة وعالم بلا هوية لمحمود المنير/١٤.

ونشر المفاهيم والقيم الغربية كانت من أهداف الدول الغربية بعد الحرب العالمية الأولى عن طريق فرض الوصاية والانتداب، وبعد الحرب العالمية الثانية عن طريق الاستعمار والتنصير والاستشراق؛ لكن أطماعها تزايدت بعد تهيؤ الظروف الآتية:-

(١) ظهور الثورة التقنية التي سميت بالثورة الصناعية الثالثة، وتمثلت في التقدم الصناعي الغربي الهائل، ولاسيما في مجال الاتصالات والمعلومات والفضاء والحاسب الآلي والإلكترونيات الدقيقة والهندسة الوراثية.

(٢) تحرير التجارة الخارجية بين الدول عن طريق رفع القيود عن النشاط الاقتصادي وإبرام الاتفاقيات الدولية الضامنة لذلك كالاتفاقية الدولية العامة للتعريفات التجارية (الجات) التي سعت إلى فتح الأسواق العالمية أمام التجارة العالمية، وإزالة كل القيود والحواجز أمام التجارة الدولية.

(٣) قيام شركات كبرى متعددة الجنسيات، متنوعة النشاطات متميزة بضخامة نشاطها وإيراداتها ومبيعاتها، مثل شركة (مينستوبيشي) وشركة (جنرال موتورز) وغيرها من الشركات الكبيرة التي تمتلك أرصدة ضخمة وإمكانات مادية هائلة وقوة إنتاج واسعة، فقد استطاعت هذه الشركات أن تفرض نفسها على الواقع الاقتصادي بحيث تعجز الدول من أن تحد من تأثيرها في تحقيق التحولات في النشاط الاقتصادي العالمي.

(٤) تنامي القوة العسكرية الغربية ولاسيما بعد سقوط الاتحاد السوفيتي في عام ١٩٩١م، وقد سبقه في عام ١٩٨٩م تحول الدول الأوروبية الشرقية من النظام الاشتراكي إلى النظام الاقتصادي الغربي، واتباعها لسياسات الانفتاح على أسواق الدول الغربية وعلى الفكر الغربي.

ولا ريب أن هذه الظروف أسهمت على إظهار الدول الغربية على أنها قوة عالمية واحدة، تقود نظاما جديدا يسعى إلى نشر نمط

الحياة الفكرية الغربية بكل مفاهيمها ونظمها وقيمها بين المجتمعات^(١).

العولمة الثقافية:

لا ريب أن الثقافة ذات خصوصية إذ أن لكل أمة من الأمم مبادئ وقيما ومفاهيم تمثل شخصيتها الظاهرة، وتعبّر عن نظرتها للحياة، وتنم عن تصورهما للوجود، فتحرص على استمرارها والمحافظة عليها، وحينما نستعرض سلسلة الأحداث الكبيرة التي غيرت تاريخ العالم من اشتعال حروب وقيام دول وحركات فكرية ونهضات علمية نجدها جميعها تهدف إلى اقتلاع فكرة وإحلال فكرة أخرى مكانها؛ سواء أكانت الفكرة البديلة هي الأمتل أم الأسوأ، وتمثل ظاهرة العولمة في الوقت الحاضر إحدى الحلقات الجديدة في هذه السلسلة الممتدة، والتي يمكن القول بأن العولمة الثقافية أحد وجوهها وأكثرها تميزا، وأعظمها خطرا، وهي تعني إلغاء ثقافات الشعوب المتركمة والموروثة لتحل محلها ثقافة النظام الواحد عن طريق الوسائل الحديثة المستخدمة من أجل إحداث التحول المطلوب^(٢).

وإذا كانت العولمة عرفت بعولمة الاقتصاد فهذا يرجع إلى كون الاقتصاد أول المنافذ إلى التأثير في حياة الشعوب والأداة الضاغطة على مصالحها، ولا أدل على هذا من أن سقوط الاتحاد السوفيتي كان فشلا ذريعا للنظام الاقتصادي الشيوعي، وهو في الوقت نفسه انتصار للاقتصاد الرأسمالي القائم على المنافسة الحرة والأسواق المفتوحة والهيمنة على المال العالمي من خلال الشركات الكبرى ومراكز المال الدولية.

وإذا كانت العولمة الاقتصادية ظهرت من خلال إنشاء الأسواق المالية والتجارية العالمية مثل السوق الأوربية المشتركة التي أنشئت في أواخر أكتوبر عام ١٩٩١م، وبرزت عن طريق المؤسسات

(١) مقالة: العولمة في بعدها الثقافي للدكتور منصور زويد المطيري، مجلة كلية الملك خالد العسكرية، عدد صفر عام ١٤٢٠هـ / ٣٥-٣٦.

(٢) مقالة: دور الإعلام في نشر تيار العولمة للدكتور هاشم عبده هاشم، مجلة كلية الملك خالد العسكرية، عدد صفر عام ١٤٢٠هـ / ٢٠.

والشركات العالمية العملاقة عابرة القارات الخارجية عن سيطرة الدول، مثل شركة (ميتسوبيشي) وشركة (جنرال موتورز) ذات النشاط التجاري الضخم-فإنها تستمد حيويتها من انجذاب العالم بأسره انجذابا كاملا لفكر النظام الرأسمالي الحر الذي حقق أكبر نجاحاته بعد تراجع النموذج الاشتراكي، وتطبيق الدول الأوروبية الشرقية الاشتراكية سابقا لمبادئ التجارة الحرة، وهذا التوجه العالمي واضح من الناحية الاقتصادية؛ إلا أن العولمة الثقافية دون ذلك تماما، فهي الآن لم تبلغ ما بلغته العولمة الاقتصادية من التجليات في حياة الشعوب السلوكية والتطبيقات المادية التي ترعاها المؤسسات الاقتصادية العالمية، وذلك يعود إلى أن العولمة الاقتصادية محصلة تطورات تجارية ومالية تسارعت في العقدين السبعينات والتسعينات من القرن الماضي^(١) بخلاف العولمة الثقافية لم تزل مستعصية-في كثير من المجتمعات ومنها المجتمع الإسلامي-على النظام الدولي في التخلي عن ذاتيتها وهويتها الخاصة رغم محاولات الغزو الفكري القديمة التي كانت تسعى إلى تحقيق قدر من جذب الشعوب إليها عن طريق التقليد والتبعية المطلقة.

لكن لا ينبغي أن يغيب عمن كان في حالة ترقب لظاهرة العولمة أنه رغم هذا الاستعصاء فإن المرحلة القادمة من الجهود الغربية المبذولة في التحول العالمي ستتجه نحو الاهتمام بالعولمة الثقافية نظرا للعناية المتزايدة من الدول الغربية وبعض الدول الشرقية التي تسير في ركابها كاليابان بثقافة المعلومات والمعرفة العلمية نتيجة لما تحقق من تطور صناعي سريع ومذهل في العلم وتقنية وسائل الاتصال والإلكترونيات ولم يزال، هذا التطور في وسائل الاتصال حول مسار ثقافة العولمة الغربية من ثقافة الإنتاج إلى ثقافة المعلومات والمعرفة العلمية، وقد أمكن ذلك بسبب هذه الطفرات الجذرية في العلم

(١) بحث: العولمة جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها للدكتور عبد الخالق عبد الله،

مجلة عالم الفكر، عدد أكتوبر ١٩٩٩م / ٧٣-٧٤.

والتقنية^(١)، الأمر الذي جعل كثيرا من المفكرين الغربيين يحلمون ببناء امبراطورية العصر الالكتروني وشبكات التحكم والاتصال الجديدة التي سيصبح السوق المالي العالمي واهنا بالنسبة إليها بفضل تقنيات المستقبل^(٢).

إن العولمة في اتجاهها الفكري (تطمح إلى صياغة ثقافة كونية شاملة، تغطي مختلف جوانب النشاط الإنساني، فهناك اتجاه صاعد يضغط في سبيل صياغة نسق ملزم من القواعد الأخلاقية الكونية)^(٣). وإن هذه الثقافة مهما استخدم في صياغتها من صبغة علمية ومعرفية فإنها كما يراها عبد الوهاب المسيري صيغت داخل التشكيل الحضاري والسياسي الغربي، فهي تحمل معالم هذا التشكيل، وتدور في إطار العلمانية الشاملة التي تدعو إلى إنكار القيم وتأكيد النسبية المعرفية والأخلاقية وتطور العالم، ولا يبعد أن تكون الصفة المعرفية لهذه العولمة وسيلة للتسلل إلى إرجاء العالم من أجل بناء الهيمنة الثقافية الغربية^(٤) التي تسعى الدول الغربية إليها؛ وتعمل على تحقيقها عن طريق الاتفاقات الثقافية والاقتصادية وغيرها مع الدول الأخرى.

معالم العولمة الثقافية الغربية:

يتعرض العالم اليوم لرياح العولمة الثقافية الغربية التي أصبحت تهب على مجتمعاته عن طريق منافذ اتصال متنوعة وسريعة التأثير، ناقلة معها أيديولوجيات الفكر الغربي الحديثة ونظرياته الاجتماعية، ومروجة لسلوكيات المجتمع الغربي وأنماط حياة أفراده، لقد استهدفت هذه الرياح تفريغ مجتمعات العالم من ثقافتها لتحل محلها الثقافة الغربية مستغلة فرصة الانفتاح الثقافي الذي يشهده العالم حاليا

(١) بحث: العولمة هل من رد إسلامي معاصر لإبراهيم أبو ربيع، مجلة إسلامية

المعرفة، العدد الحادي والعشرون عام ١٤٢١ هـ / ٣٣.

(٢) العولمة وعالم بلا هوية لمحمود المنير / ١١٩.

(٣) ظاهرة العولمة (الأوهام والحقائق) لمحيي محمد مسعد / ١٠٤.

(٤) مقالة: عولمة الالتفات بدلا من المواجهة، مجلة المعرفة محرم ١٤٢٠ هـ / ٢٠.

والتهيؤ النفسي لدى الشعوب لهذا الانفتاح، ومستخدمة في سبيل ذلك كل مكتسباتها العلمية والتقنية.

وتبرز معالم تأثير هذه العولمة على العالم وعلى العالم الإسلامي بصفة خاصة في الوقت الحاضر فيما يلي:

هـ- **التذويب الكلي أو الجزئي للهوية الثقافية:** تسعى العولمة إلى التذويب الكلي أو الجزئي للهوية الثقافية ذات الخصوصية الشديدة لدى المجتمعات التي تكونت لدى كل منها حتى أصبحت نسيجاً يميزها عن الأخرى، وقد قامت الأديان بدور بارز في تشكيل هذه الهوية، كما أسهمت الأعراف والتقاليد في بلورة خصوصيتها لكل مجتمع، وإذا كانت العولمة تستهدف هذا التذويب، وتعمل على انهيار هذه الثقافات وذوبانها فإن هذا يعني أن الثقافة بما فيها ثقافتنا الإسلامية ستعرض لمواجهة شديدة، تنعكس سلباً على مجتمعنا المتمسك بجذوره الثقافية، وستكون هذه الثقافة في محك الامتحان، فالتالي لا تملك مقومات الثبات ستكون أكثر قابلية للاجتياح الثقافي العولمي، وإذا كانت الثقافة الإسلامية أكثر من غيرها مقاومة للعولمة الثقافية الغربية لما تمتلكه من مقومات الثبات، وفي مقدمتها الرصيد العقائدي النقي والسند الصحيح، والماضي التاريخي المشرق والاتساق في تشريعاته مع الفطرة والعقل - فإن هذا لا يعني أن الثقافة الإسلامية ليست بحاجة إلى تكريس الجهود من أجل تفادي الارتطام مع حركة العولمة العالمية في مسارها الإلزامي، وإلى المحافظة على هويتها الخاصة وصفتها الشخصية، وهذا يستلزم أن نفتح عقولنا، ونعطي الدراسة والبحث العلمي حقهما، وسوف نجد فيهما ما يجعلنا الأقوى في ظل المواجهة الواعية لهذا المد العارم^(١).

و- **العمل على إبراز الثقافة الغربية بما تشتمل عليه من مفاهيم وقيم وقناعات ومواقف إنسانية مشتركة وعابرة لكل المناطق الحضارية، وفرضها على ما سواها من الآراء والأفكار على**

(١) مقالة: دور الإعلام في نشر تيار العولمة للدكتور هاشم عبده هاشم، مجلة كلية

الملك خالد العسكرية، عدد صفر عام ١٤٢٠هـ / ٢٢.

أساس أنها الثقافة البديلة، ولأنها تمثل الفلسفة التي ينطلق منها التصور للعولمة، وتنبثق منها العلاقة بين جوانبها؛ لذا فإن العولمة لا تستهدف إيجاد ثقافة عالمية جديدة ممتزجة من ثقافات مختلفة، أو ناشئة من تفاعلها جميعاً؛ وإنما تستهدف نشأة عالم جديد بلا حدود ثقافية خاصة، ينسلخ من هوياته الماضية، ويتم فيه التبادل الحر للأفكار والمفاهيم عبر المجتمعات، ويُمكن من رواج المفاهيم الغربية وأذواق المجتمع الغربي، وهي من أجل تحقيق هذا الهدف تسعى إلى أن تبلغ البشرية مرحلة من الحرية الكاملة التي تسمح بانتقال الأفكار والمعلومات والاتجاهات والقيم والأذواق على الصعيد العالمي وبأقل قدر من القيود والضوابط^(١)، وذلك لتسهيل عملية الفرض عن طريق ما تمتلكه من وسائل اقتصادية وإعلامية وسياحية عالمية ذات محتوى فكري لا يمكن الوقاية من التأثير به بمجرد الاستفادة من الوسيلة؛ إذ تضعف مع الزمن خاصية التحكم فيصبح الإنسان متأثراً بالمحتوى الفكري رضي أم أبى؛ مما يقتضي تكثيف الجهود من أجل تحقيق حصانة كافية لأبنائنا وبصفة خاصة أجيالنا القادمة، ووقايتهم من التقاليد والتبعية المطلقة للحضارة الغربية، تقوم على بناء العقيدة الصحيحة، وغرس الفضائل والأخلاق الكريمة في النفوس، والعمل على طهارة المجتمع من الفساد والرذيلة.

ز- استغلال المؤسسات الاقتصادية والوسائل الإعلامية والنشاط السياحي لترويج الفكر الغربي داخل المجتمعات بطريق غير مباشر، فقد أصبحت المؤسسات الاقتصادية القائمة وسائل إلى للاحتكار والتعامل بالفائدة وتجاهل مشاعر الفقراء والمحتاجين وتنمية الفوارق بين فئات المجتمع وتعظيم صورة المال في النفوس والقضاء على الملكيات الصغيرة وتحويل الناس إلى عمال لفئة قليلة من ملاك رؤوس الأموال والشركات الكبرى، الأمر الذي أعطى هذه المؤسسات القدرة على صياغة مثل هذه المعاني السيئة والقيم المادية، وأصبحت وسائل الإعلام الفضائية أداة لتوجيه

(١) بحث: العولمة جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها للدكتور عبد الخالق عبد الله،

مجلة عالم الفكر، عدد أكتوبر ١٩٩٩م / ٧٦.

الشعوب والتأثير عليها في آرائها وأفكارها وأذواقها، وصارت وسائل السياحة سبيلاً إلى إلغاء الحدود وتقريب المسافات من خلال ما تهيأ للسائح من أسباب المتعة الجاذبة، وطريقاً إلى التلاقي البشري والتلاقح الفكري بين الشعوب، وهذا يتطلب من المسلمين العمل على إيجاد البدائل الكافية، وتوظيف الوسائل الجديدة الاقتصادية والإعلامية والسياحية من أجل تهيئة أجواء صالحة للدعوة إلى الله تعالى ونشر القيم الإسلامية والمحافظة على أخلاق الإسلام الكريمة ومبادئه السامية.

أخطار العولمة الثقافية:

قد يصعب حصر الأخطار التي تنشأ عن العولمة بصفة عامة؛ بل قد يطول الحديث عن أخطارها الثقافية، ولكن يمكن الاختصار على أهمها، وهي:-

♦ **تغيب المبادئ الدينية والخلقية تحت وطأة تأثير الفكر الغربي والنظريات المنحرفة عن الدين^(١) والقيم، ومصادرة الانتماءات الدينية عدا الانتماء إلى النصرانية، الذي لا نجد في حركة العولمة الغربية ما يدل على الإلزام بالتخلي عنه؛ لأنه يعد نوعاً من أنواع الحرية الشخصية في الفكر العلماني الغربي، ذلك أن واقع الدول الغربية التي تروج للعولمة، وتسعى إلى فرضها على الشعوب عن طريق مصادرة الانتماء الديني لم تزل على رغم علمانياتها تسير على الخط المسيحي في توجهها العام، وفي مقدمة هذه الدول الولايات المتحدة الأمريكية، يدل على هذا قول الرئيس الأمريكي الأسبق (ريغان) أحد صنّاع السياسة الأمريكية الحديثة: (إن الدين يلعب دوراً حاسماً في الحياة السياسية لأمتنا)^(٢)، وأمام هذا القول يتبين أن الغرب لم يزل يؤمن بتأثير الدين في توجيه الحياة السياسية في الوقت الذي يسعى فيه إلى جعل المسلمين يتخلون عن دينهم، ولا ريب أن هذا يزيد المسلم إيماناً بحقيقة قرآنية، هي أن**

(١) العولمة الغربية والصحة الإسلامية للدكتور عبد الرحمن الزبيدي / ٣٣.

(٢) النظام العالمي الجديد من منظور إسلامي للدكتور علي محيي الدين القره

داغي/ ٢٧.

أهل الكتاب حريصون على ردتهم عن دينه فرض التأقلم مع الحضارة الغربية والذوبان فيها: ذلك أن العولمة ليست محصورة في الاقتصاد وحرية التجارة الدولية التي تعد المحرك الرئيس لها، وليست مجرد وسائل تنقل العقائد والقيم والنظم بشكل سريع يمكن لكل أمة الاستفادة منها في ترسيخ عقائدها وقيمها ونظمها، وليست فكرة خاضعة لحرية الفرد أو حريات الشعوب بحيث يأخذ كل واحد ما يريد منها، ويدع ما لا يريد، وإنما هي تأقلم وذوبان مع معطيات الحضارة الغربية بخيرها وشرها، وتوجه يعمل على إزالة كل الخطوط التي تفصل بين الأمم وتمايز بينها من عقائد وشرائع وقيم من أجل إقامة عالم واحد لغته المشتركة هي اللغة الإنجليزية، وقانونه العام هو القانون الدولي الذي يراعاه ويعده الغرب، ومقاييسه ومواصفاته وقيمه موحدة، وهي مقاييس الحضارة الغربية ومواصفاتها وقيمها، إنهم يدركون أن المحتوى الثقافي هو الذي يقود العالم، ويشكل الشعوب^(١).

♦ إخضاع القيم والأخلاق لقانون فكرة العصرية والنسبية: ذلك أن العولمة الغربية لا تؤمن بأي قيم ثابتة، ولا تعترف بوجود كليات ملزمة؛ بل تتجاوز العقائد والموروثات والقيم الأصيلة إلى ما تقتضيه السيولة الفكرية التي تقوم عليها فكرة العصرية والنسبية من التطور وعدم الثبات وقبر كل قديم وثابت من الأخلاق والقيم، وهذا يعني أن العولمة محاولة لإخضاع كل القيم بما فيها القيم الثابتة والأصيلة وفق مفهوم العصرية والنسبية؛ وإن كان هذا لا ينفي وجود ثمة منظومة معرفية قيمية خفية متكاملة وراءها، تسعى إلى الاعتلاء على غيرها من القيم الثابتة والتاريخية^(٢)؛ إذ يستحيل أن تنشأ العولمة الغربية وتنمو بمجرد الصدفة والسذاجة، فحقيقة العولمة الغربية أنها تهدم ما لدى الشعوب من قيم خاصة نابعة من

(١) مقالة: العولمة في بعدها الثقافي للدكتور منصور زويد المطيري، مجلة كلية الملك

خالد العسكرية / ٣٦ .

(٢) مقالة: النظام العالمي الجديد، عولمة الالتفات بدلا من المواجهة للدكتور عبد

الوهاب المسيري، مجلة المعرفة عدد محرم ١٤٢٠ هـ / ٢٠ .

الأديان والأعراف، وتبني فوقها قيم الحضارة الغربية المضطربة والمتطورة.
الموقف من العولمة الثقافية:

مضت سنة الله تعالى في حصول التدافع بين الناس والصراع بين البشر، وتمثل ظاهرة العولمة أحد صورته الحديثة، قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ {البقرة: ٢٥١}، هذا التدافع يستلزم أن يتم بين طرفين مختلفين؛ لكن لا يستلزم أن يرفض أحدهما ما عند الآخر كلياً، وعلى الخصوص لا يصح أن يقبل ما عنده كلياً؛ لأن القبول يتنافى مع معنى التدافع المقتضي للرفض ولو جزئياً.

إن اتخاذ المسلمين موقفاً من العولمة في ظل التدافع القائم بين الحضارات، ولاسيما مع الدول الغربية التي تفقد هذه العولمة-يحتاج إلى حكمة ووعي، فليس القبول المطلق للعولمة التي تفرضها هذه الدول على الشعوب الإسلامية صائباً؛ لأن فيه انسياقاً وتعجلاً وتجاهلاً لمنطق العقل الذي يقتضي الانتفاع بما فيها من إيجابيات وتفاذي ما فيها من السلبيات، وليس رفض العولمة جملة صحيحة أيضاً؛ لأنه مناف للحكمة، ويعرض الشعوب الإسلامية لضرر أكبر؛ إن قرار الرفض أسهل ما يمكن اتخاذه، ولكنه أصعب ما يمكن التعايش معه مستقبلاً، ذلك أن ظاهرة العولمة من الناحية الواقعية تنامت وأصبحت تمثل صورة جديدة من العلاقات بين الدول والأمم والشعوب، من يرفضها سيبقى معزولاً عن العالم، وسيحرم من كل عطاءات الحضارة الحديثة، وإذا كان أحد قد اتخذ قرار الرفض عن قناعه فليعلن أنه ليس بحاجة إلى الاستفادة من التقنية العالية وتبادل المعلومات وأجهزة الاتصال والأقمار الصناعية وأجهزة الطب الحديث والتنقيب الجيولوجي والإلكترونيات، ومثل هذا الموقف يعني اتخاذ قرار يرفض عزلة قاسية على النفس والمجتمع الذي يخضع له، ويعني كذلك التعرض لطائل الحصار الدولي الذي سيؤدي في النهاية إلى التنازل بالعزيم والنفيس في سبيل رفع هذا الحصار والتعايش مع الآخرين.

إنه يتعين على المسلمين رفض الانسحاق مع العولمة فيما يتعارض مع دينهم وهوية أمتهم وإثبات خصوصيتها نظراً لأن العولمة تستهدف صهر الأمم والمجتمعات في بوتقة واحدة هي بوتقة الحضارة الغربية وعلى الخصوص الحضارة الأمريكية، وإذا كانت الفوارق بين الحضارات الإقليمية طفيفة فإن الفرنسيين لم يزالوا وهم يشاركون الغربيين في محتوى الحضارة الغربية الانجلوسكسونية وفي قيادة العولمة-على توجس شديد من أن تفرض على حياتهم أنماط سلوكيات الحياة الأمريكية الخاصة، وعلى خشية من مخاطر اجتياح الأنماط الأمريكية لمجتمعهم الفرنسي تحت مظلة العولمة، يدل على تلك المواقف المتشددة التي أبدتها الحكومة الفرنسية أثناء مفاوضات الجات في قطاع الخدمات؛ نظراً لكون هذا القطاع يحتوي على جوانب ثقافية، متكئين في تشدهم هذا على ما يمتلكون من بدائل اقتصادية مؤثرة تمكنهم من حماية ثقافتهم، ولا ريب أن المسلمين لا يقلون وزناً وتأثيراً عن الفرنسيين إذا توفرت لديهم إرادة سياسية قوية تمكنهم من استثمار ما لديهم من ثقافة أصيلة تقوم على جوانب روحية عظيمة تحتاج إلى هدايتها البشرية جمعاء، ومن ثروة بشرية كبيرة تزيد على مليار نسمة، ومساحات جغرافية واسعة ومتنوعة الموارد، وثروة معدنية مهمة تعتمد عليها الصناعة الأساسية العالمية، وموقع استراتيجي يربط القارات، ويتحكم بالممرات البحرية، ويتسم بتنوع المناخ، ويعد من أفضل المناخات للملاحة الجوية الدولية^(١) فإن هذه الإرادة لو وظفت توظيفاً سليماً لغيرت موقع المسلمين، ونأت بهم عن التبعية لغيرهم، بالغة بهم إلى موقع القيادة، وفي أقل الأحوال جعلتهم في موقع الاحترام والمهابة بين الأمم والدول.

إن استثمار المسلمين لما يمتلكونه من عقيدة صحيحة لهي من أقوى العناصر المؤثرة في قلوب المجتمعات والشعوب، ذلك أن الخواء الروحي المتفشي بين الناس وطغيان المادية المتسلطة وانتشار الأمراض الفتاكة الناشئة من فساد الأخلاق وغياب القيم، ورواج المخدرات بين الأفراد، وابتذال الجنس لهي من أهم الظواهر الفكرية والاجتماعية التي تعاني منها شعوب العالم، ويعالجها الإسلام مخلصاً هذه الشعوب من شرورها، وواقعية الإسلام وعنايته بمصلحة الإنسان

(١) مقالة: العولمة الاقتصادية أهي حتمية أم مجرد خيار للدكتور عبد الواحد خالد

الحמיד /، مجلة كلية الملك خالد العسكرية / ٢٩.

وبكل متطلبات تكوينه هي من أهم ما يساعد على سرعة انتشاره بالرغم من جاذبية المدنية الغربية المادية التي ابتليت مجتمعاتها بهذه الظواهر السيئة بسبب إهمالها للجانب الروحي والخلقي، وستزداد سوءاً مع العولمة، ويمثل الإسلام-بما يشتمل عليه من صفاء العقيدة وتكامل التشريع وحسن الرعاية للعلم والحضارة وحماية الأخلاق وتحقيق التوازن بين متطلبات الإنسان في الحياة الروحية والعقلية والجسدية-الصورة الصحيحة للعالمية أو العولمة التي اختارها الله سبحانه للبشرية، عند ما جعل الإسلام خاتماً للأديان والرسالات الصحيحة، ومبطلاً لما دونه إن التأييد المطلق للعولمة الثقافية بحجة أن الانفتاح على الثقافات الأخرى أصبح من سمات العصر، وأن الرفض المطلق لن يغني فتيلاً في إيقاف المد الغربي الثقافي الزاحف على العالم الإسلامي-نوع من الاستسلام الرخيص المتجاهل لطبيعة الدين الإسلامي والمتغافل عن تاريخ الأمة الإسلامية وثقافتها، إن الموقف السليم يقتضي رفض العولمة الثقافية الغربية التي لا تؤمن بغير قيمها، وتريد تذويب ثقافتنا الإسلامية، ورفض كل ما يخالف ديننا وقيمنا الشرعية، ورفض كل ما يمسح شخصيتنا أو يبذل هويتنا، ويقتضي ألا نكتفي بمجرد الرفض وحده؛ بل لا بد أن نكون إيجابيين في الموقف بحيث نتبنى نهج المواجهة لعولمة المسخ الثقافي أو العدوان الثقافي، وهذا يتطلب منا التشبث بهويتنا الثقافية الإسلامية ذات الخصائص المستمدة من عقيدتنا وديننا؛ إن هذه الهوية هي الحصن الحامي لنا من لوثات الغرب وتحدياته العدوانية، بل هي الدرع المنقذ للبشرية كلها مما تعانيه في ظل انتشار المادية وقيم الغرب، وذلك راجع إلى ما تمتلكه من قيم العدل والحرية وحقوق الإنسان^(١)، ولعل تنامي الصحو الإسلامية في العالم الإسلامي يجسد لنا مقدرة المسلمين على التصدي لهذا المسخ الغربي الفكري والعدوان الثقافي، ويبين مدى تشبثهم بهويتهم الثقافية (لأن فعل العدوان الثقافي-كما يرى عبد الإله بلقزيز-لا يحتل المشهد وحده ؛ بل هو غالباً ما يستنهض نقيضه بسبب

(١) مقالة تسويق الاستهلاك ... للأستاذ أسعد السحمراني، مجلة المعرفة عدد/٤٦

ما ينطوي عليه عنفه الرمزي من استفزاز لشخصية المعتدى عليه، ومن تشبث بثقافته وهويته^(١).

لكن مع إدراك أهمية التصدي والمواجهة لا بد أن ندرك أن العولمة وضع عالمي جديد لا يمكن تجاهله، ليست العولمة الثقافية فحسب؛ بل جميع أنواع العولمة العلمية والاقتصادية والإعلامية والسياسية فهل بالوسع أن نرفضها جميعاً، ونقبل العيش في معزل عن العالم وحدنا، لا نمتلك فيه القدرة على المواجهة والثبات على وضعنا الحالي الذي يعاني من التشرذم في المواقف السياسية، ويفتقد الاستراتيجية الاقتصادية الموحدة والعملية، ويتصف بالتأخر في السبق العلمي والتكنولوجي الحالي، فما من سبيل أمامنا إلا سلوك موقف الانتقاء والوسطية.

القضية الثامنة: عالمية الإسلام والروابط البشرية

مفهوم عالمية الإسلام:

العالمية لغة: نسبة إلى العالم، والعالم في اللغة: (الخلق كله، أو ما حواه بطن الفلك)^(٢).

وتعني عالمية الإسلام: أنه دين للإنس والجن كافة، وأنه ليس ديناً خاصاً لقومية معينة، ولا لإقليم محدد؛ بل هو لجميع الخلق من العقلاء مهما اختلفت أجناسهم وألوانهم وأوطانهم ولغاتهم وأوصافهم.

مستند عالمية الإسلام:

يستند مفهوم عالمية الإسلام على نصوص كثيرة من القرآن الكريم والسنة النبوية، يقول ابن تيمية: عالمية الإسلام (معلومة بالاضطرار من دين الإسلام وفي القرآن من دعوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن دعوة المشركين وعباد الأوثان، وجميع الأنس والجن ما لا يحصى إلا بكلفة)^(٣).

(١) مقالة: العولمة والهوية الثقافية، مجلة المستقبل العربي، العدد الثالث، عام

١٩٩٨م/٩٩.

(٢) القاموس المحيط للفيروز آبادي ٤/١٥٥.

(٣) الجواب الصحيح لمن بدل الدين المسيح ١/٣٣٦.

أولاً: مستنده من القرآن الكريم: دلت آيات القرآن الكريم على الآتي:
(١) أن الإسلام دين الحق، نسخ الله به جميع الأديان السابقة، وأظهره عليها.

(٢) أن محمدا صلى الله عليه والسلام نبي ورسول، بعثه الله بشيرا ونذيرا، ورحمة للعالمين من الأنس والجن.

(٣) أن القرآن الكريم كتاب ذكر وهداية إلى كل من يبلغه من العالمين من الإنس والجن أن القرآن الكريم خاطب أهل الكتاب مبينا لهم أنهم مشمولون بدعوة (ﷺ) كغيرهم ممن جاءهم بشيرا ونذيرا.

ثانياً: مستنده من السنة النبوية: دلت السنة النبوية على الآتي:

(١) أن الرسول (ﷺ) رحمة مهداة للعالمين عامة، قال (ﷺ): (يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة)^(١).

(٢) أن الرسول (ﷺ) اختص بين إخوانه من الأنبياء عليهم السلام بأن بُعث إلى الناس عامة يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من قبلي، كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحر وأسود...)^(٢).

(٣) أن الرسول (ﷺ) أرسل كتبا إلى عظماء زمنه يدعوهم فيها إلى الإسلام، وهذا دليل عملي على عالمية رسالة الإسلام، منها كتابه إلى كسرى عظيم فارس: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى ... وأدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة؛ لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، اسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس)^(٣).

(١) رواه الحاكم في المستدرک ٣٥/١، وقال: حديث صحيح، قال الهيثمي في مجمع

الزوائد ٢٥٧/٨: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه مسلم في كتاب المساجد، رقم ٥٢١، ٣٧٠/١.

(٣) رواه الزيلعي في نصب الراية في كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى عظماء

الأمم، باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى عظيم الفرس، ٤/٢٠٤.

(٤) أن الرسول (ﷺ) بين أن دعوته تشمل كل من يسمع به من اليهود والنصارى، قال (ﷺ): (والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)^(١).

الإسلام ليس ديناً خاصاً بالعرب:

ليس الإسلام ديناً خاصاً بالعرب وإن كان الله بعث رسوله محمداً (ﷺ) من العرب، وأنزل كتابه القرآن الكريم بلغتهم، فذلك فضل من الله يؤتيه من يشاء، وهم بذلك كانوا أول المدعوين إلى الدخول في الإسلام؛ إذ هداهم الله به من ضلال، وجمعهم به بعد فرقة، وإذا كان الله أمر رسوله (ﷺ) أن يبدأ دعوته بإنذار عشيرته الأقربين وقد امتثل الرسول (ﷺ) لما نزلت هذه الآية؛ فصعد الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون قريش، حتى اجتمعوا. فقال: أريتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا. قال: (فإني نذير لكم بين يدي عذاب أليم)^(٢) فإن هذا لا يعني اختصاص عشيرته، ولا قبائل العرب بالإسلام دون الناس، وإنما يعني أن الله تعالى اصطفاهم لحمل رسالة الإسلام، واختار لسانهم ليكون لغة القرآن الكريم ووسيلة فهمه ومعرفته عقيدته وشريعته؛ لذا كان العرب أول من يتعين عليهم البشارة إليه؛ لذا انطلقوا به إلى من حولهم من أمم يدعونهم إلى عبادة الله وحده، وضربوا في الأرض ينشرون هذا الدين، ويدعون الناس إلى مكارمه، لغاية هدايتهم إلى الحق، وتخليصهم من جور النحل الفاسدة والملل المحرفة، بعد أن ذاقوا مرارة جور الأديان، كما قال رباعي بن عامر لما وقع في الأسر جواباً على سؤال يزيد بن شهرار بن كسرى عظيم فارس له في مجلسه: ما الذي ابتعثكم. قال: (الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام)^(٣).

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الخ، رقم ١٥٣، ١/١٣٤.

(٢) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب ٣ وَأَنْذَرَ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿١٦﴾ ﴿١٦﴾ {الشعراء: ٢١٤}، رقم ٤٧٧٠.

(٣) البداية والنهاية، لابن كثير ٧/ ٣٩.

ومما يدل كذلك على أن العرب لم يكونوا وحدهم من بين الناس غاية دعوة الإسلام أن القرآن الكريم لم يخاطبهم بخطاب خاص بهم، فلم يقل: (أيها العرب) أو (يا عرب)، ولم ينادهم (ﷺ) بمثل هذا الخطاب، وكان نداؤه (ﷺ) لبطون قريش في أول دعوته يمثل المرحلة الأولى للدعوة؛ لكننا نجد القرآن الكريم يخاطب بخطاب عام، فيقول: (يا أيها الناس) و (يا بني آدم) و (يا أيها الإنسان)، (يا أيها الذين آمنوا)، يدخل فيه العرب كغيرهم؛ بل هم من أول من يدخل في هذا الخطاب^(١)، ويقصد بالأوامر والتكاليف؛ لكون الرسول (ﷺ) أول ما أرسل أنذرهم، والقرآن نزل بلغتهم.

مرتكزات عالمية الإسلام:

تقوم مرتكزات عالمية الإسلام على الآتي:

(١) **وحدة الرب والمعبود:** الله سبحانه هو رب العالمين، أي خالقهم ومالكهم ومربيهم، لا يشاركه أحد في الإحياء والإماتة، وفي تصريف الكون وتدبيره، تجري سننه في خلقه، وتحكم قوانينه المطردة حياتهم، لا تغيير فيها ولا تبديل، وإنما يخضعون لها دون تمييز، أو محاباة^(٢)، قال تعالى: ﴿سُئِلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَحْدِلُ سُنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (١٢) ﴿الأحزاب: ٦٢﴾، وهذه الربوبية ثابتة بالأدلة الكونية وبالقطرة السليمة، فالكون كله ينطق شاهداً على أن الله خالقه ومسخره، وهذا الرب هو المعبود المستحق وحده للعبودية، ذلك أن توحيد الله تعالى في عبوديته هو الغاية من وراء الإقرار بربوبيته سبحانه واتخاذ شريك مع الله تعالى في أي نوع من أنواع العبادة مناف للتحديد ومضاد له، وضلال وذنب عظيم وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: سألت رسول (ﷺ) أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: (أن تجعل لله نداً وهو خلقك)^(٣).

(١) فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام لصالح بن عبد الله العبود/٢٢٣.

(٢) دعوة الإسلام لسيد سابق ١٤٤.

(٣) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٢) ﴿البقرة: ٢٢﴾، رقم ٤٤٧٧.

لقد دعا جميع الأنبياء عليهم السلام إلى عبادة الله وحده، وهدم الأوثان والبراءة من الأنداد، وكلهم جاءوا بهذه الدعاية الخالصة لله تعالى فكان ذلك منهجا سار عليه الأنبياء والمرسلون يتجه نحو جمع الناس على توحيد الله، والنأي بهم عن الشرك الذي يفرقهم فهو سبحانه الخالق المتصف بصفات الكمال، المستحق للعبادة وحده، قال تعالى منكرا على النصارى تحريفهم ما جاء به المسيح عليه السلام من التوحيد الخالص عندما جعلوا لله ولدا وتأتي عالمية الإسلام في دعوته الناس إلى الإيمان برب واحد، ومعبود واحد، هو الله تعالى، وأنهم كلهم أفراد وجماعات مهما اختلفوا في انتماءاتهم سواء في الافتقار إليه سبحانه والحاجة إليه، لا يستغني عنه أحد منهم بحال من الأحوال، سواء وَحَدَّوه أم أشركوا معه.

(٢) **وحدة الأصل والمصير:** ينظر الإسلام إلى الناس على أنهم يشكلون وحدة إنسانية لا تمايز فيما بين شعوبها وأفرادها في الأصل وطبيعة الخلق والمصير^(١)، فهم ينحدرون من أب واحد، هو آدم عليه السلام، وخلق الله تعالى آدم أبا البشر من تراب، قال (ﷺ): (يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى)^(٢)، وبث الله من آدم الرجال والنساء الذين صاروا بالتكاثر شعوبا وقبائل، لا فضل لبعضهم على بعض في أصل الخلق وقد خلق الله تعالى البشر وفق طبيعة واحدة لا تختلف، فقد شاء الله أن يخلق الإنسان من طين، وأن ينفخ فيه من روحه وقد جعل الله تعالى مصير البشر واحدا، وهو الموت إذ لا بد أن تلقى كل نفس أجلها، ولا بد أن يفنى البشر جميعهم، ولا بد أن يبعثوا في الآخرة ليحاسبوا على أعمالهم، ويجازوا عليها إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، كل يوفى أجره على عمله دون محاباة وقد بنى الإسلام عالميته هذه على أساس أن البشر وحدة واحدة بأصل التكوين وإذا كانت الغرائز والاتجاهات سببا في فرقة الناس واختلافهم؛ فإن الإسلام هو دين الوجدانية

(١) معالم الثقافة الإسلامية لعبد الكريم عثمان / ١٢١ .

(٢) رواه أحمد، المسند ٤١١/٥ .

وجامع غايات الرسالات ولبها؛ لذا دعاهم على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأوطانهم إلى ما يوحدهم بعد فرقته، ويهديهم إلى الحق بعد ضلالهم، و يضمهم جميعا في وحدة إنسانية شاملة، تتبع رسالة إلهية واحدة، وشريعة كاملة عادلة^(١).

(٣) وحدة الدعوة:

جاء خطاب الإسلام عاما للناس جميعا، يخاطبهم بالتكليف والأمر والنهي بوصفهم الإنساني الواحد الذي لا يعرف التمييز بينهم، فهو يخاطبهم على أنهم عباد الله تعالى، وأنهم مكلفون بعبادته سبحانه وحده، وهذا التكليف بما احتوى عليه من تشريع رحمة للعالمين، وهداية للناس كافة؛ ليس تشريعا لجنس خاص من البشر، أو لإقليم معين من الأرض؛ بل هو للإنسان من حيث هو إنسان، أبيضاً كان أم أسود، عربياً كان أم أعجمياً، في الشرق كان أم الغرب^(٢)، فقد جعل الله الإسلام آخر الأديان السماوية نزولاً، وجعل نبيه محمداً (ﷺ) آخر لينة في صرح النبوة؛ وجعل رسالته خاتم الرسائل، وآخر أدوارها، وآخر الخطوات في إكمال الدين الذي رضي الله تعالى لخلقه؛ لذلك قال تعالى في آخر آية نزلت من القرآن الكريم^(٣) لقد استطاع الإسلام أن يوحد الشعوب التي انتشر فيها، ويصوغها صياغة فريدة على الأخوة في هذا الدين، فكان هذا من أبرز مقوماته، وتميزه على غيره من الأديان، يقول (لارنس): (إن الأخوة التي أعلنها الإسلام، كانت أمراً واقعاً، وشيئاً طريفاً لا عهد للشعوب الشرقية به، إننا نشك في أن مسيحيي سوريا كانوا يعاملون إخوانهم في الدين من الإيرانيين، ويعتبرونهم أسـ

(١) المجتمع الإنساني في ظل الإسلام لمحمد أبو زهرة / ٤٦..

(٢) نظرات إسلامية في مشكلة التمييز العنصري لعمر عودة الخطيب / ١٤٧.

(٣) المجتمع الإنساني في ظل الإسلام لمحمد أبو زهرة / ٤٢، ٣٩.

(٢) الإسلام وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية لأبي الحسن الندوي / ٤٣.

واحدة^(١)؛ بل كانت هذه الأخوة سببا في جذب الناس إلى اعتناق الإسلام، وانتشاره في الآفاق، يقول المستشرق الفرنسي (هانوتو) (لا يوجد مكان على سطح الأرض إلا واجتاز الإسلام فيه حدوده منتشرا في الآفاق ... فهو الدين الوحيد الذي أمكن انتحال الناس له زمرا وأفواجا، وهو الدين الوحيد الذي تفوق شدة الميل إلى التدين به كل ميل على اعتناق دين سواه)^(٢).

١) وحدة القيم والحقوق:

إن الإيمان بالله الواحد ولد احترام القيم والالتزام بالحقوق، ورسخ حق المساواة بين البشر أفرادا وجماعات وأمما، ودفع النفس المؤمنة إلى إقامة العدل بين الناس الذي أمر الله به ^(٣)، فالإسلام لم يكتف بمحو أسباب التفرق والنزاع بين الناس؛ بل أمر بالكف عن أذية الناس بحيث يأمن كل فرد على دمه وماله، قال صلى الله عليه وسلم: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم)^(٤)، ودعا إلى إقامة العلاقات بين الناس على أساس التعاون والتراحم والعفو عن المسيئ، والصفح الجميل عنه.

وجاء الإسلام بتشريعات ملائمة للفطرة، وملبية لكل تطلعات الإنسان نحو الخير والحق والعدل والإخاء والحرية والمساواة وسائر القيم الرفيعة، يقول الكاتب الفرنسي (مارسيل كابي): (حمل القرآن للناس باسم الإيمان الثابت على وجه الإطلاق أصول العدالة والنظام الاجتماعي، الذي يخضع الفرد لمراعاة آداب الاجتماع، ويفرض على الجماعات حماية الأفراد، وهو بهذا الأسلوب يوافق في جواهر مبادئه أحدث القواعد الاجتماعية العصرية ... وقد نظم حدود حياة كل فرد وحياة المجموع)^(٥)، فقد (حث الإسلام على التعارف والتعاون والعمل

(٣) رواه أبو داود في الأدب، باب في التفاخر بالأحساب.

(٣) نحو إنسانية سعيدة لمحمد المبارك / ٩٩-١٠١.

(٤) رواه الترمذي في كتاب الإيمان، باب ما جاء في أن المسلم من سلم المسلمون من

لسانه ويده، رقم ٢٦٢٧، ١٧/٥.

(٥) المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية لعمر عودة الخطيب / ١٩٢.

الإنساني المشترك دون أن يجعل للاختلاف في الجنس واللغة واللون أي أثر في المس بهذا الهدف الذي يعود بالنفع العام على البشرية جميعا ... وقرر المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات، ورفض كل أسباب التفاوت والتفاضل التي كانت سائدة في الجاهلية، وهي أسباب لا وزن لها ولا قيمة ولا اعتبار، مادام أصل الإنسانية المشترك واحدا من حيث خلق كل إنسان من تراب ثم من نطفة^(١) لقد كان لممارسة هذه القيم وإمتاع الإنسان بحقوقه الأساسية أثر بليغ في فصح فساد الفلسفات والأديان التي استساعت العنصرية واستمرت الطبقة، وكان له تأثير بليغ في نفوس أبناء الطبقات المحرومة، يقول جواهر لال نهرو رئيس وزراء الهند السابق: (إن دخول الإسلام كان له أهمية كبيرة في تاريخ الهند، إنه قد أظهر انقسام الطبقات، وحب الاعتزال عن العالم الذي كانت تعيش فيه الهند، إن نظرية الأخوة الإسلامية والمساواة التي كان المسلمون يؤمنون بها، ويعيشون فيها، أثرت في أذهان الهندوس تأثيرا عميقا، وكان أكثر خضوعا لهذا التأثير اليوساء الذين حَرَّم عليهم المجتمع الهندي المساواة والتمتع بالحقوق الإنسانية)^(٢).

مفهوم الروابط البشرية:

تمثل الروابط البشرية حالة التواصل الفطرية والمكتسبة بين الأفراد والجماعات، وما ينشأ عنها من حقوق وواجبات وعلاقات أدبية من تواد وتراحم وغيرها، هذه الروابط يقوم عليها بنيان المجتمعات، وتربط أفرادها بعضهم ببعض^(٣).

وقد قرر الإسلام مجموعة من المبادئ التي تدعم هذه الروابط، وتقويها، من أهمها: الكرامة الإنسانية والعدالة الاجتماعية والمساواة بين الناس والحرية والوفاء بالعهود والمواثيق والتعاون على البر والتسامح مع الآخر، كما بنى الإسلام علاقة المجتمع الإسلامي

(١) نظرات إسلامية في مشكلة التمييز العنصري لعمر عودة الخطيب / ١٥٠.

(٢) الإسلام وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية لأبي الحسن الندوي/ ٤٣.

(٣) المجتمع الإنساني في ظل الإسلام لمحمد أبو زهرة / ١٢١.

بغيره على أساس السلم^(١) لأنه في بيئة السلم تقوى العلاقات الاجتماعية، وتنمو الصلات الحميمة بين الناس، ويشعرون بقيمتها وآثارها النافعة.

الروابط البشرية:

ترابط البشر بعضهم ببعض روابط عدة، من أبرزها:

(١) **رابطة وحدة الأصل:** إن الإسلام ساوى بين الناس في أصل الخلق، فقرر نشأتهم من نفس واحدة وأوضح أن ما يكون بينهم من اختلاف في اللغة واللون لا يمنح أحدا مكانة رفيعة، ولا قربا من الله تعالى؛ بل هو آية من آيات الله، وأثر من آثار البيئة وأنه إذا كان ثمة فرق في الانتماء إلى شعب أو قبيلة فإن الله جعل ذلك للتعرف والتآلف؛ لا للتناحر والاختلاف والتفاخر^(٢).

(٢) **رابطة الأسرة والقرباة:** إن ارتباط الإنسان بأفراد أسرته أبا أو أما أو زوجة أو أولادا أو أقاربا وأرحاما هو ارتباط فطري، وعلاقة غريزية بين الناس، يقرها الإسلام، ويأمر بها، تنشأ عنها حقوق البر بالوالدين ولو كانا مشركين؛ فإن الله تعالى أوصى الإنسان عموما بالإحسان إلى والديه وإطاعتهما ما لم يأمره بالشرك، كما أقر الرسول (ﷺ) صلة الوالدين وتجنب كل ما يؤدي إلى عقوبتهما، أو يفضي إلى قطيعة رحم، في الحديث عن أسماء بنت أبي بكر الصديق (رضي الله عنها)، قالت: (قلت: يا رسول الله! إن أُمِّي قدمت علي، وهي راغبة (أي مشركة) أفأصلها؟ قال: نعم)^(٣)، ومع قوة هذه الرابطة في نفس الإنسان، وتعلقه بها، وحبه إياها، وتفضيلها على غيرها إلا إنها لا تقدم على رابطة الإيمان التي يتعين أن تكون غاية عليا لتواصل المؤمن وعلاقته بغيره.

(١) معالم الثقافة الإسلامية لعبد الكريم عثمان / ٢٢٣.

(٢) دعوة الإسلام لسيد سابق / ١٤٢.

(٣) رواه مسلم في كتاب الزكاة، باب فضل النفقة، رقم ١٠٠٣، ٦٩٦/٢.

(٣) **رابطه الدين:** إن غاية الإسلام من رابطه الدين تحرير البشرية كلها من عبودية الأهواء، والارتفاع بها عن أضرار الحقد وشوائب العصبية؛ لتصوغ علاقتهم الإنسانية صياغة فريده، قوامها الدين الحنيف، ولحمتها التناصح والتأزر، وجوهرها الإخلاص وسلامة النفس، وقد كان لهذه الرابطة أثرها في رد الناس جميعا إلى ذكرى نشأتهم الأولى من نفس واحدة، وإيقاظ ما في قلوبهم من شعور القربى والرحمة، وفي بناء علاقاتهم فيما بينهم خالصة من الشوائب، مفعمة بأعمق الود وأنبيل المشاعر^(١)، فالمتآخون على أساس هذه الرابطة أقرب رحما من وشائج النسب، وأقوى ارتباطا من روابط الدم لقد ربطت هذه الأخوة قلوب المتآخين برباط لا ينفصم؛ لأنها فوق المنافع والمطامع والعصبية والأهواء، وأقام الإسلام بها الموازين الفاصلة بين الولاء والبراء دون اعتبار لمقاييس العصبية والعنصرية التي مزقت شمل الناس، وصنفتهم إلى طوائف وطبقات، وفي ذلك يقول سبحانه مذكرا بهذه الأخوة التي جمعتهم بعد تفرق، ووحدتهم بعد تمزق.

(٤) **رابطه العهد والميثاق:** لما كانت علاقة السلم هي الأصل في العلاقات الإنسانية، وهي ضمان تحقيق الأمن والسلامة للشعوب والأمم ودفع الظلم عن المستضعفين فإن العهود التي تُكون هذه الرابطة، وتقويها يجب احترامها إذا كانت قائمة على العدل والإنصاف واحترام الآخرين والاعتراف بحقوقهم، فقد كانت عهود الرسول (ﷺ) عهودا عادلة، يعطي فيها بمقدار ما يأخذ، وكانت على قدم المساواة مع كل من كان يعاهده^(٢)، وحرّم الإسلام نقض العهد بعد إبرامه لأنه يقطع رابطه التواصل بين الناس، ويفضي إلى العداوة بينهم والقتال معهم، وتقويت كل المصالح الناشئة عن حالة الأمن والسلم بين الطرفين، وهي ما وصفه.

وفي مقدمة من يجب الوفاء لهم بالعهد أهل الذمة الذين يقيمون في المجتمع الإسلامي، ولهم حق المواطنة، أو المستأمنون الذين

(١) المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية لعمر عودة الخطيب/٢٠٦.

(٢) المجتمع الإنساني في ظل الإسلام لمحمد أبو زهرة/٢٠٤.

يقيمون فيه بصفة مؤقتة، فقد أقر لهم الإسلام دينهم إذا كانوا من أهل الكتاب أو لهم شبهة كتاب، ومنع إكراههم في الدخول في الإسلام، وأعفاهم من الأحكام والحدود فيما لا يحرّمونه، وأثبت لهم من الحقوق ما للمسلمين، وأوجب على الدولة الإسلامية حمايتهم وإنصافهم، وعقوبة الاعتداء عليهم، وأمر بحسن معاملتهم^(١) وتمكين المستأمن منهم سماع كلام الله تعالى، وتأمينه حتى يبلغ مأمنه، ويدل على ذلك قوله تعالى البقرة: وقال (ﷺ): (من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة)^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّبِعْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣) {التوبة: ٦}، وقال صلى الله عليه وسلم: (ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه حقه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة)^(٤)، وكتب عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إلى عمرو بن العاص (رضي الله عنه) وهو أمير على مصر (إن معك أهل الذمة والعهد فاحذر يا عمرو أن يكون رسول (ﷺ) خصمك)^(٥).

وكفلت الدولة الإسلامية رعاياها دون تمييز فللذمي حق في بيت المال كما للمسلم؛ فتجب كفالاته إذا احتاج وكان عاجزاً عن العمل، ويدل على ذلك ما كتبه عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى إلى عامله في البصرة عدي بن أرطاة: (وانظر من قبلك من أهل الذمة من قد كبرت سنه وضعفت قوته، وولت عنه المكاسب فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه)^(٦)، وكذلك المعاملة مع من كان خارج المجتمع وفق الميثاق؛ فإنه يجب الوفاء به حتى لو حال ذلك دون نصره أخ في الدين إن تواصل المسلمين مع غيرهم ممن يخالفونهم في الدين على أساس هذه الرابطة التي تجسد معنى الأخوة الإنسانية،

(١) حقوق الإنسان، لعللي وافي، ص ٢١.

(٢) رواه البخاري برقم (٣١٦٦) كتاب الجزية والموادعة. وابن ماجه برقم (٢٦٨٦) كتاب الديات.

(٣) رواه أبو داود برقم (٣٠٥٢) كتاب الخراج والإمارة والفيء.

(٤) الخراج، لأبي يوسف، ص ١٤٤.

وتحفظ المودة والسلام بين المجتمعات البشرية، وتقيمها على أساس من العدل والإنصاف الذي يضمن لها البقاء والدوام، ويحميها من العداوة والتشرد- هو ما أمر الله به، وهو أقرب للتقوى، وأحب سبحانه من عباده المؤمنين القيام به.

القضية التاسعة: القومية والعنصرية

تعد القومية والعنصرية من أهم النزعات الاجتماعية التي ربطت الإنسان منذ القدم بجماعته، بحيث اعتز بالانتماء إليها، وحمائتها، والذب عنها بنفسه وماله، وأخلص الولاء لها، والخضوع لمبادئها وتقاليدها دون قيد أو شرط^(١)، و تبعها تبعية مطلقة دون أعمال لعة

أو قيمة من القيم، وهي وإن كانت ربطت الإنسان في المجتمعات بعشيرته أو قبيلته أو قومه، أو من يلتقي معهم على مصالح معينة إلا أنها من أشد النزعات التي أثارت الكراهية والبغضاء بين الناس، وأهدرت حقوق الإنسان، وصادرت كرامته وحريته، وحرمته من العلاقات الإنسانية الكريمة القائمة على المساواة بين الناس في القيمة الإنسانية، والعدل بينهم، والتعاون بينهم فيما يحقق الخير للجميع، ويُمكن من حياة آمنة مطمئنة^(٢).

مفهوم القومية والعنصرية:

١) في اللغة:

أ- **القومية:** من القوم، وهم الجماعة من الناس، تجمعهم جامعة يقومون لها، وقوم الرجل عصبته، وهم أقاربه من أبيه، أو قومه الذين يتعصبون له، وينصرونه^(٣).

ب- **العنصرية:** من العنصر، وهو الأصل والحسب، والعنصرية تعني تعصب المرء أو الجماعة للجنس^(١).

(٢) محاضرات في الثقافة الإسلامية لأحمد محمد جمال / ٣٤٩.

(٢) نظرات إسلامية في مشكلة التمييز العنصري لعمر عودة الخطيب / ١١.

(٣) المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة / ٦٠٤، ٧٦٨.

(٢) **في الاصطلاح:** هي شعور قوي لدى جماعة بالانتماء إلى أسرة القوم أو العنصر، والاعتزاز بها، ينشأ عنه ولاء وارتباط يتحكم في عقول أفراد هذه الجماعة وسلوكهم ؛ بحيث يصبحوا يدا واحدة على من سواهم، ينتصرون لبعضهم، ويسالمون عليها غيرهم ويعادونهم^(٢)، ويبنون عليها آراءهم وأفكارهم ومواقفهم ونظام حياتهم.

تاريخ القومية والعنصرية:

عرفت المجتمعات البشرية ألوانا من السلوكيات التي احتقرت الإنسان وامتهنته، نشأت عن عقائد ضالة، ومذاهب فاسدة، وأنظمة اجتماعية منحرفة، فقد كان اليونان يقسمون المجتمع إلى طبقات اجتماعية متفاوتة في الحقوق المدنية، يونان، وهم: سكان مدينتي أثينا وإسبارطة، ولهم جميع الحقوق المدنية، وموالي ليس لهم حق في كثير من الحقوق، ورقيق محرومون من كل الحقوق، كما أن قدماء اليونان كانوا يعتقدون أنهم وحدهم كاملو الإنسانية، زدوا بقوى العقل والإرادة على حين خلقت الشعوب الأخرى ناقصة الإنسانية^(٣)، واعتز الرومان بأرومتهم، ورأوا أنهم أرقى أهل الأرض عنصرا، وأنهم أعظمهم مدنية وثقافة، وكانوا يلقبون الشعوب الخاضعة لهم بالبرابرة^(٤)، وكان مبدؤهم يقوم على تقديس الشعب الروماني، وأن الشعوب الأخرى لا تستحق أن تحكم نفسها بنفسها، وحسبها خدمة العنصر الروماني الرفيع، وليس لها أن تنال أكثر مما يقدم لها من الأكل الذي يقيم صلبها^(٥)، ويحفظ حياتها.

واعتقد الأكاسرة ملوك فارس أنه يجري في عروقهم دم إلهي، وكانت الرعية تنتظر إليهم على أنهم آلهة، يعتقدون أن في طبيعتهم شيئا علويا مقدسا، كما كان المجتمع الفارسي طبقيا يصنف الناس على أساس النسب والحرف، بين كل طبقة وأخرى هوة واسعة،

(١) المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة / ٦٣١.

(٢) معالم الثقافة الإسلامية لعبد الكريم عثمان / ١٣٧.

(٣) نظرات إسلامية في مشكلة التمييز العنصري لعمر عودة الخطيب / ٢٧.

(٤) الإسلام والمشكلة العنصرية لعبد الحميد العبادي / ١٣.

(٥) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي / ٦٦-٦٧.

لا تصل بينهما صلة، وعلى كل فرد أن يقنع بمركزه الذي منحه إياه نسبه، فليس له أن يتخذ حرفة غير الحرفة التي خلق لها، وكان أهل فارس يقдسون قوميتهم، ويرون لها فضلا على سائر الأجناس والأمم، وأنهم خصوا بمواهب ومنح لم يشاركهم فيها أحد، وكانوا ينظرون إلى غيرهم من الأمم نظرة ازدراء وامتهان^(١)، كما خضع المجتمع الهندي آلاف السنين لنظام اجتماعي لم يعرف التاريخ أشد قسوة منه على الإنسان، يرتكز على قاعدة المحافظة على السلالة الأرية ونجابتها، مكونا تفلوتا طبقيا بين أفراد المجتمع الواحد، متنوعا إلى أربع طبقات، هي:

- أ- **البراهمة:** وهم طبقة الكهنة ورجال الدين، ويعتقد أنهم خلقوا من فم الإله.
- ب- **الكشتر:** وهم الجند ورجال الحرب، ويعتقد أنهم خلقوا من ساعد الإله.
- ج- **الویش:** وهم أهل الصناعة والتجارة والزراعة، ويعتقد أنهم خلقوا من فخذ الإله.
- د- **الشودر:** وهم الطبقة الدنيا، يعملون في خدمة الطبقات السابقة، ويعتقد أنهم خلقوا من قدم الإله^(٢).

وقد منح هذا النظام الذي وضعته الكتب الدينية الهندوسية طبقة البراهمة امتيازات عجيبة، فقد جعلتهم صفوة الآلهة، وملوك الخلق، وسادة الأرض، في حين أهانت طبقة الشودر (المنبوذین)، فلا يحق لهم السكن مع بقية الطبقات في مساكن لائقة، مما اضطرهم إلى السكن بعيدا عن هذه الطبقات، وفي مساكن هي في غاية الحقارة والضعفة، كما أن هذا النظام حرمهم من التعليم، ومنعهم من دخول المعابد^(٣).

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي / ٤٩-٥٢.

(٢) المستشرقون لنجيب عفيفي / ٥٠٤.

(٣) نظرات إسلامية في مشكلة التمييز العنصري لعمر عودة الخطيب / ٤٨، ٥٠.

وزعم اليهود أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحبائه، وأن الإسرائيليين يعتبر عند الله أكثر من الملائكة^(١)، وأن ما عداهم من البشر ليسوا إلا كالحوانات، وإنما خلقوا على صفتهم حتى لا يتوحشون من خدمتهم، وجاءت الحركة الصهيونية لتؤكد نظرة اليهود إلى غيرهم من الأمم، وهي نظرة ازدراء وكراهية، وتتضح هذه النظرة في استعلائهم عنصريا، والزرارية بغيرهم ممن يسمونهم: (الجوييم) أي الأميين^(٢)، جاء في البروتوكول الحادي عشر: (إن عقل الأمم-لكونه ذا طبيعة بهيمية محضة-غير قادر على تحليل أي شيء، فضلا عن التكهن بما قد يؤدي عليه امتداد حال من الأحوال إذا وضع في ضوء معين . وهذا الاختلاف التام في العقلية بيننا وبين الأميين، وهو الذي يمكن أن يرينا بسهولة آية اختيارنا من عند الله، وأنا ذوو طبيعة ممتازة فوق الطبيعة البشرية حين تقارن بالعقل الفطري البهيمي عند الأميين)^(٣).

كما أن الكتاب المقدس في النصرانية رسم صورة عريضة لحدود طاعة ما يعرف بالعبيد لسلادتهم واستجلاب رضاهم، مما يوحى بنظرته للنظام الطبقي المتبع آنذاك، ويدل كذلك على أن النصرانية اصطبغت بصبغة الرومان ؛ لذا أصاب القاضي عبد الجبار الهمداني لما قال: (إن الروم ما تنصرت، ولا أجابت المسيح ؛ بل النصرارى ترومت، وارتدت عن دين المسيح)^(٤)، ومما يؤكد استمرارها للعنصرية والطبقية قول القديس (توما الأكويني): (إن الطبيعة خصصت بعض الناس ليكونوا أرقاء)^(٥).

وعرف العرب في الجاهلية فكرة القومية باسم العصبية ؛ فكانت القبيلة أو العشيرة هي الوحدة السياسية و الاجتماعية التي يعيش

(١) الكنز المرصود في قواعد التلمود ترجمة يوسف نصر الله/١١-١٨.

(٢) نظرات إسلامية في مشكلة التمييز العنصري لعمر عودة الخطيب /٥٢، ٥٧.

(٣) الخطر اليهودي - بروتوكولات حكماء صهيون، ترجمة محمد خليفة التونسي/١٧٧.

(٤) تثببت دلائل النبوة، تحقيق عبد الكريم عثمان ١/١٦٨.

(٥) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه/٢٠١.

أفرادها في إطارها، وتحت ظلها، ويخلصون الولاء لها، ويخضعون لتقاليدها، يعبر عن ذلك منطق الشاعر الجاهلي:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم للنائبات على ما قال برهانا وفي أوروبا لم تكتمل القومية إلا في القرن الثامن عشر الميلادي، بعد أن فقدت الكنيسة الكاثوليكية نفوذها على إثر قيام حركة مارتن لوتر الإصلاحية وظهور الكنيسة البروتستانتية المتحررة؛ حيث تشكلت فكرة القومية على أساس المصالح القومية دون اعتبار للدين في تشريعها السياسي والاقتصادي والاجتماعي، ثم تطورت القومية إلى اتحادات سياسية وعسكرية واقتصادية^(١) تجمع الأجناس الأوروبية، وظهرت اليوم آثار العنصرية في استعلاء الجنس الأبيض على الأسود في صورة مختلفة وراء السياسات العنصرية وأساليب التعامل المهينة والاتفاقيات المجحفة في حق اقتصاد الشعوب الملونة والسوداء، وفي حالة التخلف العلمي والفقر والإهمال وانتشار الأوبئة والأمراض الفتاكة التي لا تزال تعاني منها هذه الشعوب، وتدوق مرارتها على مرأى ومسمع العالم بأسره.

في ضوء هذه التصورات والفلسفات المترامية على مر العصور تطلع الإنسان إلى منهج يعالج هذه المشكلة التي عانى فيها من ظلم أخيه الإنسان واستعلائه عليه وحرمانه من حقوقه الأساسية، ومصادرته لحريته، واستغلاله لثرواته دون وجه حق أو لأسباب مكتسبة.

تعريف العصبية:

أ- في اللغة: من عَصِبَ القوم به عصباً: أي اجتمعوا حوله، وتعني: المحاماة والمدافعة عن يُلْزَمُك أمره، وتلزمه لغرض^(٢).

ب- في الاصطلاح: هي رابطة استعلاء تقوم على التعصب الطبقي والعنصري والتمييز بين الناس على أساس اللون أو النسب أو الثروة أو الجاه، تؤدي إلى إهدار كرامة المخالف والزرارية به

(١) محاضرات في الثقافة الإسلامية لأحمد محمد جمال / ٣٥٠.

(٢) المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة / ٦٠٣.

وسلبه حقوقه الإنسانية^(١) أو بعضها . وبهذا المعنى تكون الطبقة والعنصرية من أنواع العصبية التي عرفتھا المجتمعات البشرية.
أنواع العصبية:

أ- **عصبية اللون:** تقوم على أساس افتراض وجود دم أزرق نبيل، وآخر دم أحمر وضيع، وعلى تقسيم الناس إلى أقسام حسب لون بشرتهم بيضاء كانت أو سوداء، يستغل بها الأبيض أخاه الأسود، ويمتهنه للون بشرته، يقول (شارل دي مونتيسكيو) في كتابه روح القوانين: (وما شعوب أفريقية إلا جماعات سوداء البشرة، من أخمص القدم إلى قمة الرأس، ذات أنوف فطساء إلى درجة يكاد من المستحيل أن ترثي لها، وحاشا لله ذي الحكمة البالغة أن يكون قد أودع روحا-أو على الأخص روحا طيبة-في جسد حالك السواد)^(٢).

ولا ريب أنه عندما يسود في مجتمع ما منطق احتقار الإنسان على أساس لونه، ويتم تصنيف أفرادہ في طبقات متفاوتة بسببه فإن ذلك يدل على جهل هذا المجتمع وشفائه، يقول مصطفى السباعي: (إن الحضارة التي لا يستعلي فيها عرق على عرق، ولون على لون هي الحضارة التي يسعد بها الإنسان العاقل الكريم، وتسعد بها الإنسانية الواعية الكريمة، والحضارة التي يعلو فيها الأبيض، ويمتهن فيها الأسود، ويسعد بها ذوو البشرة البيضاء، ويشقى بها الملونون هي الحضارة الجاهلية التي ترتد بها الإنسانية إلى الوراء مئات القرون عمياء متكبرة جاهلة حمقاء)^(٣).

ب- **عصبية الطبقة:** تنشأ روابط اجتماعية بين الناس كرابطة الأسرة، أو رابطة المهنة أو رابطة السكنى بين أهل الحي أو القرية، وتقوم روابط أخرى على أساس التقارب في المراتب والمنازل، فقد كانت

(١) نظرات إسلامية في مشكلة التمييز العنصري لعمر عودة الخطيب / ٣٢.

(٢) نقلا عن كتاب: فضل الحضارة الإسلامية والعربية على العالم لذكرى هاشم

ذكرى/ ١١٢.

(٣) من روائع حضارتنا / ١٤.

قريش قبل الإسلام تفرض لنفسها مرتبة خاصة وحقوقا وتقاليدها محددة خلاف سائر العرب، وفي المجتمع الفارسي تفاوتت الطبقات على اعتبار النسب والحرف، كما تمايزت في الهند الطبقات الأربع في الوظائف، وانقسم المجتمع الروماني إلى طبقات، هي طبقة النبلاء وطبقة رجال الدين وطبقة العامة الذين هم غالب الشعب^(١).

ج- عصبية القوم والعنصر: تقوم على تفضيل قومية على غيرها، وعنصر من العناصر البشرية على آخر، فيزعم أن هذه القومية أرقى، وأن هذا العنصر أذكى وأنقى، وقد عبر (أرسطو) عن النزعة العنصرية التي حكمت المجتمع اليوناني، وصاغها في نظرية (بيولوجية اجتماعية) لما قرر (أن الله خلق فصيلتين من الناس، فصيلة زودها بالعقل والإرادة، وهي فصيلة اليونان وقد فطرها على التقويم الكامل؛ لتكون خليفته في أرضه، وسيدة على سائر خلقه، وفصيلة لم يزودها إلا بقوى الجسم، وهؤلاء هم البرابرة، أي ما عدا اليونان من بني آدم، وقد فطرهم على هذا التقويم الناقص؛ ليكونوا عبيدا مسخرين للفصيلة المختارة المصطفاة)^(٢)، ويلتقي الفكر الاستعماري مع النزعة العنصرية التي تزعم تفوق الجنس الآري وبخاصة الفرع (النورديكي) في الصفات العقلية والروحية، وأنه النبع الأوحده للحضارة، وإلى هذا الجنس ينحدر المفكرون والمخترعون والعلماء الذين حملوا مشعل الحضارة، وقد صدرت مؤلفات لدعم هذه الفكرة، منها كتاب (عدم المساواة بين الأجناس للكونت جوزيف جوبينو)، وكتاب (تاريخ اللغات السامية لأرنست رنان) الذي قرر فيه أن الجنس السامي دون الجنس الآري^(٣).

موقف الإسلام من عصبية القومية والعنصرية:

لا يرفض الإسلام العصبية القائمة على الحق، والانتصار للعدل والفضيلة، كما أنه لا يعترض على الانتماء إلى القبيلة لإثبات نسب،
أو إلى قومية معينة كوحدة اجتماعية، يشاركها مشاعرها، ويذب عن

(١) معالم الثقافة الإسلامية لعبد الكريم عثمان ١٢٩-١٣٥.

(٢) نظرات إسلامية في مشكلة التمييز العنصري لعمر عودة الخطيب / ٣٧-٣٨.

(٣) نظرات إسلامية في مشكلة التمييز العنصري لعمر عودة الخطيب / ٧٤.

حقوقها ومكارمها، ولا ينفي الإسلام كذلك حق الإنسان في حب وطنه وعشيرته والحنين إليهم، مرتقيا به من التعلق بالأرض والموقع الجغرافي لذاتهما إلى القيمة والمكانة والحرمة؛ وقارنا لها بالمباديء والقيم التي يؤمن بها من يقيم على هذا الوطن، لقد أظهر الرسول صلى الله عليه وسلم هذا المعنى في خطابه لمكة، وهو مهاجر منها: (ما أطيبك من بلد، وأحبك إلي، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك)^(١)، إن هذا المعنى يجلي موقف الفطرة في محبته صلى الله عليه وسلم لبلده مكة، معللا هجرته منه رغم تعلقه به ومحبته له بإخراج كفار قريش له، ومنعهم إياه من إقامة مباديء الإسلام فيه.

ولا يلغي الإسلام فضل قومية بعينها؛ لكنه يضع منها ما كان سائدا في المجتمعات من الفخر بالأنساب والأحساب، والتعالي بسببها على الناس وأعراقهم، فالعرب فضلهم الله تعالى على غيرهم بخصيصتين تميزوا بهما عن بقية الأجناس البشرية، وذلك من قبيل الاصطفاء كما يذكر ابن تيمية، هما (العلم النافع، والعمل الصالح، فالعلم له مبدأ وهو قوة العقل الذي هو الحفظ والفهم، وتمازج قوة المنطق الذي هو البيان والعبارة... فهم أفهم من غيرهم، وأحفظ وأقدر على البيان والعبارة، ولسانهم أتم الألسنة بيانا وتمييزا للمعاني/جمعها وفرقا....)، وأما العمل فإن مبناه على الأخلاق، وهي الغرائز المخلوقة في النفس، وغرائزهم أطوع للخير من غيرهم، فهم أقرب للسخاء والحلم والشجاعة والوفاء وغير ذلك من الأخلاق الحمودة-وهم كانوا قبل الإسلام على طبيعة قابلة للخير معطلة عن فعلة.... لم يكن عندهم علم منزل من السماء، ولا شريعة موروثة عن نبي، ولا هم أيضا مشغولون ببعض العلوم العقلية المحضة كالطب والحساب ونحوهما، وإنما علمهم ما سمحت به قرائنهم: من الشعر والخطب، وما حفظوه من أنسابهم وأيامهم، وما احتاجوا إليه في دنياهم من الأنواء والنجوم أو من الحروب. فلما بعث الله محمدا (ﷺ) بالهدى - وتلقوه عنه بعد مجاهدته الشديدة لهم، ومعالجتهم على نقلهم عن تلك العادات والظلمات الكفرية التي قد أحالت قلوبهم عن فطرتهم . فلما تلقوا عنه ذلك الهدى العظيم زالت تلك الريون عن قلوبهم، واستنارت بهدى الله الذي أنزل على عبده ورسوله، فأخذوا هذا الهدى العظيم بتلك الفطرة الجيدة، فاجتمع لهم الكمال بالقوة المخلوقة فيهم والكمال الذي أنزل الله إليهم

(١) رواه الترمذي في كتاب المناقب، باب في فضل مكة، وقال الترمذي: حديث حسن

غريب من هذا الوجه، رقم ٣٩٢٦، ٧٢٣/٥.

.... وصار أفضل الناس بعدهم من تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة من العرب والعجم^(١). وإذا تأملنا هذا الكلام تبين أن تفضيل العرب لا يعود إلى جنسهم فقط؛ وإنما يعود إلى ما اصطفاهم به الله تعالى من صفات، وما تهيأ لهم من علم نافع وعمل صالح أهلهم لحمل الرسالة، والقيام بوظيفة التبليغ.

كما لا يتكرر الإسلام الأنساب، فالناس معادن مختلفة، كما قال الرسول (ﷺ): (تجدون الناس معادن، فخيرهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا)^(٢)؛ ولكنه يحرم التفاخر بها، والتباهي بمكارم الآباء؛ فيجعل من كان تقياً غير نسيب أكرم عنده من نسيب فاجر، ١٣، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه)^(٣).

ثم إن العصبية في نظر الإسلام نوعان: الأولى عصبية ممدوحة، وهي محاماة الإنسان عن قومه إذا كانوا على حق، وهي مقصود الرسول (ﷺ) في قوله: (خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم)^(٤)، وقوله (ﷺ): (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً . قال: يا رسول الله ! هذا ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً ؟ . قال: تأخذ فوق يديه)^(٥). والأخرى عصبية مذمومة، وهي التي كانت معروفة في الجاهلية، تقوم على الفخر بالأنساب، وعدّ مآثر الآباء، وقد وصفها القرآن الكريم بحمية الجاهلية الفتحة: ٢٦، وبين الرسول (ﷺ) سبب ذمها، وهو محاماة الإنسان عن قومه مع أنهم على ظلم؛ فعن واثلة بن الأسقع (رضي الله عنه)، قال: (قلت: يا رسول الله ما العصبية؟ قال: أن تعين قومك على الظلم)^(٦).

(١) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية/١٦٠-١٦١.

(٢) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب خيار الناس، رقم ١٩٥٨/٢٥٢٦، ٤.

(٣) رواه أبوداود في كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، رقم ٣٦٤٣، ٣/٣١٧.

(٤) رواه أبو داود في الأدب، باب في العصبية، رقم ٣٣١/٥١٢٠، وقال أبوداود: في

سنده أيوب بن سويد، وهو ضعيف.

(٥) رواه البخاري في كتاب المظالم، باب أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً، رقم ٢٤٤٤.

(٦) رواه أبو داود في الأدب، باب في العصبية، رقم ٣٣١/٤، ٥١١٩.

وقد أبطل الإسلام هذه العصبية لما فيها من تكبر على الناس، واستطالة عليهم بنخوة القبيلة والقرابة، وأقام مكانها عصبية الانتصار للحق والعدل والإخوة في الدين، جاعلا معيار التفاضل بين الناس العمل الصالح والعلم النافع، قال الرسول (ﷺ): (إن الله قد أذهب عنكم عُيَّةَ الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، وفاجر شقي، أنتم بني آدم، وآدم من تراب)^(١)، فصارت المكانة المشروعة مشاعة يرتقي إليها كل من كان أهلا لها من أهل العلم والعمل مهما كان نسبه وعنصره ولونه، ومهما كانت طبقته؛ لذا كانت المساواة بين الأجناس من مآثر الإسلام التي امتاز بها، يقول المؤرخ الفيلسوف (Toyandee) في كتابه: (الحضارة في الامتحان): (إن القضاء على الفوارق السلالية والعصبيات الجنسية والدموية من أعظم مآثر الإسلام ومفاخره، أما العصر الحالي. فإن الشعوب الناطقة باللغة الانجليزية قد حققت بعض النجاح في ربط الشعوب بعضها ببعض، وعادت على العالم الإنساني بخير ورحمة، ولكن الحقيقة الراهنة التي يجب الاعتراف بها أنها أخفقت في القضاء على العواطف السلالية والجنسية)^(٢).

القضية العاشرة: الدين والعلم

هل هناك قضية بين الدين والعلم يمكن أن تبحث ؟ هل العلاقة التي بين الدين والعلم هي ما بين كفتي الميزان من توازن وتراجح ؛ فإذا خفت كفة أحدهما ثقلت كفة الآخر ! بحيث إذا ساد الدين انحسر ظل العلم، واستولى الجهل على الناس، وانتشرت الترهات والأباطيل، وإذا ساد العلم انكمش ظل الدين، وضمرو وجوده، وانزلق الناس في الشهوات والمصالح الذاتية فلا يجدون ما يقودهم إلى الحق والعدل، ويحملهم على رعاية الفضيلة وانتهاج سبلها.

إن التاريخ يشهد بمساهمة الأديان في بناء الحياة الإنسانية، والتأثير في عقول الناس وقلوبهم وإقامة المجتمعات والحضارات، وفي غرس الفضائل والأخلاق، وتكوين العادات الطيبة، وتنظيم الحياة الإنسانية، وضبط حدود الحقوق والواجبات بين الناس، فقد سجل

(١) عُيَّةُ الجاهلية: أي الكبر. النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١٦٩/٢.

(٢) رواه أبو داود في الأدب، باب في التفاخر بالأحساب.

(٣) نقلا عن كتاب: الإسلام وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية لأبي الحسن

الندوي/٤٣.

التاريخ ذلك في حياة الفراعنة واليونان والرومان والهنود والصينيين والبابليين والآشوريين، وهم يدينون بديانات وضعية فكيف بالأمم التي تدين بديانات سماوية بعث الرسل بها لخير البشرية جمعاء، إنه لا يمكن لعقل عرف وظيفة الدين ومكانته في حياة البشر أن ينكر حقيقة سلطانه على النفوس، واقتداره على قيادة الناس، وإلزامهم كلمة التقوى؛ إذ كيف للإنسان أن يسير غطلا من المرشد الذي يُبصره بمعالم الطريق، ويهديه سواء السبيل؟ هل حقا أن الدين في أي مجتمع هو علة وقوع الإنسان في الضعف والهوان؟، وهو علة تأخر المجتمعات وانحطاطها، وأن ذلك يتبين بمقارنتها بما آل إليه حال المجتمعات المادية الملحدة من تقدم وتطور، وثم سؤال أخير .. أحقا أن النهضة العلمية الحديثة والمدنية التي نشأت وتطورت في المجتمعات المادية الملحدة قامت منفصلة عن الدين، بعيدة عن مؤثراته؟^(١). هذا ما يمكن الإجابة عليه من خلال بحث هذه القضية.

تعريف الدين وأهميته للإنسان والمجتمع:

(١) **تعريف الدين:** في اللغة يعني الذل والطاعة والخضوع والانقياد لوضع معين، هذا الوضع إما أن يكون إلهيا أو غير إلهي، وفي الاصطلاح هناك من يرى أن الدين: (وضع إلهي يرشد إلى الحق في الاعتقادات وإلى الخير في السلوك والمعاملات)^(٢)، وهناك من ينتقد هذا التعريف، ويرى أن الدين أعم من أن يكون خاصا بالدين السماوي؛ وأنه يشمل كل الأديان، فهو (قوة سماوية أو وثنية، مادية أو معنوية تُعبد وتُسجد وتطاع)^(٣).

ولا ريب أن التعريف الثاني أصح، فهو المنسجم مع معنى الدين في القرآن الكريم، فقد استعمل القرآن الكريم هذه المفردة مع الوثنية ديانة أهل مكة، وهي غير سماوية، واستعملها مع الإسلام وهو الدين السماوي الإلهي الحق في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾^(٤) ووصف الله الإسلام بأنه الدين الحق الذي أظهره الله على جميع

(١) قضية الألوهية بين الفلسفة والدين لعبد الكريم الخطيب/ ٤٤-٤٨.

(٢) دراز، محمد بن عبد الله، ١٣٩٤هـ، الدين / ٣٣.

(٣) عطية، أحمد، دائرة المعارف الحديثة / ٢١٣.

(٤) سورة الكافرون (٦).

الأديان الباطلة سماوية كانت أم وضعية، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (٢٨) (١).

٢) أهمية الدين للإنسان والمجتمع:

الأديان ذات حضور مؤثر في حياة الإنسان، وفي بناء المجتمع مهما كان هذا الدين من الصحة أو البطلان، وما من مجتمع إلا وقد تدين، فالتدين تأتي أهميته للإنسان والمجتمع من النواحي التالية:

أ- أنه فطرة خلق عليها الإنسان، ينزع إليها ليشبع حاجة الروح إلى الإيمان بالمعبود، ويستمد منها عقيدته ومفاهيمه للوجود والحياة، ويضبط به أمور حياته.

ب- أنه ضرورة حيوية لاستكمال وجود الإنسان، واستقرار حياته، وانتظام معيشتها، يستمد منه القوة الدافعة إلى العمل، ويتزود منه الصبر على مكاره الحياة، والثبات في وجه تياراتها الهائجة، وعواصفها القوية (٢).

ج- أنه ضرورة اجتماعية يتم عن طريقها التأكيد على الإيمان بالقيم والفضائل، والالتزام بالأحكام والقوانين التي تعنى بتنظيم شؤون الحياة؛ فإنه إذا قُدر لمجتمع أن يضرب بسهم في مجال الالتزام بالبادئ والقيم فلن يجد قوة أقوى من الدين تحمل أفرادها على التمسك بزمامها، وترد الشارد منهم، وتتجه بهم جميعا نحو الكمال والمثالية (٣).

تعريف العلم وأهميته:

١) **تعريف العلم:** في اللغة يعني اليقين والمعرفة والإدراك، وهو نقيض الجهل (٤)، وهو كما قال الراغب الأصفهاني: (إدراك الشيء بحقيقته) أو هو: الاعتقاد الجازم المطابق للواقع الناتج عن دليل؛

(١) سورة الفتح (٢٨).

(٢) قضية الألوهية بين الفلسفة والدين لعبدالكريم الخطيب/٤٤.

(٣) قضية الألوهية بين الفلسفة والدين لعبدالكريم الخطيب/٣٨.

(٤) لسان العرب لابن منظور .

فإن لم يكن كذلك كان ظنا أو جهلا أو تقليدا^(١) ويطلق على الصفة الراسخة التي يدرك بها الإنسان الكليات والجزئيات^(٢)، ويقصد به: مجموعة المعارف والحقائق التي وصلت إلى الإنسان عن طريق الوحي، أو توصل إليها من خلال تفكيره وملاحظاته وتجاربه طوال فترة حياته^(٣)، وقد وضع ابن خلدون هذين النوعين من العلوم وبين أنهما صنفان: صنف طبيعي للإنسان يقف عليه بفكره، ويهتدي إليه بمداركه، وصنف نقلي، يستند إلى الخبر عن الواضع الشرعي، لا مجال فيها للعقل إلا في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول^(٤).

إن العلم وفق هذين المعنيين تراث متراكم من المعارف والحقائق والمعلومات، يعنى بدراسة الجزئيات، ويتجه نحو العمق في المسائل والاهتمام بالتخصص العلمي، وتنقسم هذه العلوم إلى قسمين: الأول علوم دينية وإنسانية خاصة بأمة بعينها كعلوم الدين والأدب والتاريخ والاجتماع، والآخر علوم حسية تجريبية تطبيقية مشاعة ساهمت في إنشائها وتراكمها كل الأمم.

٢) أهمية العلم:

العلم ضروري للإنسان والمجتمع، وتأتي أهميته من النواحي التالية:

أ- أنه وسيلة التحرر من الجهل والخرافة والوهم، فالعلم يطارد هذه الآفات كما يطارد النور الظلام، ولا يمكن أن يستقيم حال إنسان من غير علم ينير له طريق حياته، ويهديه إلى الخير، كما أن المجتمع لا يمكن أن يستقر ويتطور إذا لم يعتمد على العلم النافع، ويأخذ بأسباب الحضارة والتطور.

(١) نهاية السؤل المشهور بشرح الأسنوي على البيضاوي / ٧.

(٢) الجرجاني، علي بن محمد عام ١٤٠٣هـ، التعريفات / ١٥٥.

(٣) عليان، شوكت محمد، عام ١٤١٥هـ، الثقافة الإسلامية وتحديات العصر / ١٩.

(٤) المقدمة / ٤٠٠ - ٤٠١، دار الشعب.

ب- أنه سبيل الخلوص من العبودية لغير الله تعالى، وطريق معرفة الله تعالى ومعرفة شرعه، وأداة إصلاح أمر الإنسان في الدنيا والآخرة ؛ فإن التكليف مناط بالعقل، وهو وسيلة فهم الخطاب الشرعي وإدراك مراد الشارع ومقاصده.

ج- أنه أداة استعمال العقل والحواس للوصول إلى المعرفة، وأداة تدبر القرآن لإصلاح النفس، وأداة التفكير في ملكوت السموات والأرض لإدراك سنن الله تعالى، وأداة التعرف على أمور الدنيا عن طريق الملاحظة والتأمل لإصلاح حال الإنسان وبيئته.

وإذا كان العلم المؤدي إلى معرفة الله تعالى ومعرفة شرعه يستند على الوحي فإن العلم الطبيعي والتجريبي يستند على البرهان واليقين، وقد أحيل الإنسان فيه إلى عقله واجتهاده، لقول الرسول (ﷺ): (أنتم أعلم بشؤون دنياكم)^(١)، وغاية ما يهدف إليه كما يقول (برتراند رسل) هو محاولة اكتشاف حقائق معينة عن العالم ومن ثم القوانين التي تصل الحقائق ببعضها بحيث يمكن التنبؤ بحوادث مستقبلية، ويتم هذا عن طريق الملاحظة والتفكير الذي يستند عليهما، وتأتي أهمية هذا العلم من ناحية قدرته على توظيف المعرفة لإنتاج وسائل الراحة والرفاه التي كانت مستحيلة، أو ذات كلفة عالية في حقبة ما قبل هذا العلم^(٢).

وحدة الدين والعلم:

الإنسان بحاجة إلى الدين والعلم، فهما يهيئان له الحياة الكريمة، ويمنحانه حقوقه، وينظمان حياته وعلاقاته بغيره، ويستحثانه على الفهم والتفكير والعمل، ويرشدانه إلى ما فيه مصلحته؛ لذا كان من الضروري أن يكون الدين والعلم في صحبة مستمرة، وألفة دائمة، وأن يكون العلم وما يتوصل إليه من نتائج داعما لحقائق الدين، ومصدقا لما جاء به، وأن يكون الدين بمعتقداته وأحكامه وشرائعه شاحدا للعقول،

(١) رواه مسلم

(٢) الصراع بين العلم والدين / ٣.

وَمُبَصَّرًا لِلْقُلُوبِ^(١)، وهاديا لها إلى منهج الحق المبين والنفع للناس أجمعين.

إن الإنسان بحاجة إلى الدين والعلم لا يغنيه أحدهما عن الآخر، فالعلم لا يغني عن الدين، فقد يخيّل لأحد أن الإنسان بالعلم يستطيع أن يتجه في حياته نحو الخير فلا يضل الطريق، ولا يشقى، إن ذلك محض إدعاء؛ لا تقوم له حجة من واقع الحياة، ولا من شواهد التاريخ، فما كان العلم وحده عاصما للإنسان من الزلل الخلقي، ولا قادرا على إقامة وازع في نفسه يردعه عن اتباع الهوى؛ خلافا للدين الذي يزجر صاحبه عن ارتكاب الإثم، وإذا ارتكبه متعمدا جعله يشعر بالخطأ والندم، إنه لا شيء يقوم مقام الدين في إقامة الوازع القوي اليقظ الذي يقوم دائما بين الإنسان وبين نوازع السوء والضلال، فهل يا ترى يقوم العلم الطبيعي والتجريبي هذا المقام؟؛ فيبعث العلم بقانون الجاذبية أو الذرة أو بمعلومة علمية أخرى لدى الإنسان الإحساس بالإثم والشعور بالواجب ما يبعثه الدين^(٢)، كما أنه لا شيء يقوم مقام العقل في إثبات الإيمان والقطع بصحته وصدقه؛ وهذا يعني أن الإيمان يمازج العقل، ويقيمه دليلا هاديا إليه، بحيث لا يبقى أثر لتوهم أن الإيمان على الدوام تسليم بما يأباه العقل، وأن العقل وظيفته القبول المحض^(٣)؛ فليس له حق الحكم على أدلة الدين، واستتباط الأحكام من مظانها بحسب قدرته من الفهم والإدراك.

إن ثمة أمر آخر لا بد منه لتحقيق الانسجام التام بين الدين والعلم وهو صحة الجانبين؛ جانب الدين بحيث يكون قائما على مصدر موثوق، خاليا من الهوى والخرافة والباطل، وجانب العلم بحيث يكون قائما على دليل صحيح من النقل أو العقل سالم من الظن والتخمين والكذب، وكان من فضائل الإسلام التي تميز بها بين الأديان أنه ارتكز على العلم، وحث أتباعه على البحث عن حقائقه، وفتح لهم أبواب التفكير في هذا الخلق الواسع المليء بالسنان الكونية والقوانين العلمية،

(١) دراسات في الثقافة الإسلامية للدكتور علي السالوس وآخرين / ٦١.

(٢) قضية الألوهية بين الفلسفة والدين لعبد الكريم الخطيب / ٣٨-٣٩.

(٣) الإنسان في القرآن لعباس العقاد / ٤٠٣.

يقول العقاد: (فضيلة الإسلام الكبرى أنه يفتح للمسلمين أبواب المعرفة، ويحث على ولوجها والتقدم فيها، وقبول كل مستحدث من العلوم على تقدم الزمن، وتجدد أدوات الكشف ووسائل التعليم، وليست فضيلته الكبرى أنه يقعدهم عن الطلب، وينهاهم عن التوسع في البحث والنظر؛ لأنهم يعتقدون أنهم حاصلون على جميع العلوم)^(١).

لقد دفع الإسلام الإنسان نحو التعرف على أسرار الكون ونواميسه، والتوسع في الكشف العلمية فكان في ذلك انتصار لقضية الدين؛ إذ لا خوف على الإسلام من البحث العلمي؛ فالحقيقة لا تخشى البحث، والإسلام على يقين من أن البحث العلمي السليم والتأمل السديد يوصلان إلى نفس النتائج التي يقررها^(٢)، وكان هذا الاتجاه أيضا داعما لقوة الإنسان التي تزداد صلابة كلما استزاد من معين الإيمان بالله تعالى (فليس معدن الدين من معدن الضعف في الإنسان، وليس الإنسان المؤمن هو الواهي الهزيل، وربما كان الأصح والأولى في التقدير والتحقيق أن عظم العقيدة في الإنسان على قدر إحساسه بعظمة الكون والتدبر في أسرارهِ وخفاياه)^(٣).

إن علماء الغرب على كثرة بحوثهم التجريبية، وما وصلوا إليه من حقائق علمية انعكس أثرها في القوة المادية ووفرة الإنتاج الصناعي لم يحققوا السعادة والاستقرار النفسي لشعوبهم، وذلك بسبب إحادهم، ورفضهم للإيمان، إذ على حد قول الأستاذ (كامل فلامريون) (ماذا يفيد الإنسان علمه ببعض الحوادث الطبيعية بجانب ذلك الإلحاد المتجدد والمؤلم الذي يجرنا إليه ضميرنا الفاقد لحرارة الحياة)^(٤)، وعلى الرغم من منهج الإلحاد الذي سلكه علماء الغرب أخيرا فإن النهضة العلمية التي شهدتها أوروبا في العصر الحديث ما هي إلا نتيجة جذوة انقذت شرارتها من الدين، واستمدت حرارتها من حماسة

(١) الفلسفة القرآنية لعباس العقاد / ٢١.

(٢) العيدة الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن الميداني/ ١٠٠.

(٣) الله لعباس العقاد / ١٨.

(٤) قضية الألوهية بين الفلسفة والدين لعبد الكريم الخطيب / ٥٢٠٥٣.

(مارتن لوثر) الدينية، الرائد الأول للتحرر الفكري الحديث في أوروبا، الذي ثار على الجمود الفكري، وعلى القيود التي فرضتها الكنيسة على المفكرين، وألبستها لبوس الدين فكان لثورته أثرها العميق في تحرير عقول الناس من وصاية الكنيسة وتسلطها على نفوسهم، و (مارتن لوثر) أحد رجال الكنيسة، ومن كبار علمائها، لكن هذا الانتصار الذي حققه رجل الدين الإصلاحي في أوروبا ما لبث أن تحول إلى مغنم بأيدي ثلة من العلماء العقليين الذين خرجوا من الدين، وناصروه العداء، وأعلنوا أنه عقيم، لا يلد إلا مواتا، فاستغشوا ثياب الإلحاد، واتخذوا من العلم المنفصل عن الدين نسبا^(١)، ومن المؤسف أن هؤلاء لم يكن لديهم قدرة على التمييز بين الدين ومحتكره، بحيث يفرقون بها بين ما يرجع إلى الدين من عهدة ومسؤولية، وما يرجع إلى رجال الكنيسة من جمود وجهل؛ فقد عيل صبرهم، ووقعوا تحت تأثير ردة الفعل حتى مقتوا كل ما يتصل بالكنيسة من عقيدة وعلم وآداب، وعادوا النصرانية أولا والدين ثانيا، واستحالت العلاقة بين الدين والعلم إلى حرب ضروس، وعداوة لا تهدأ، انتصر فيها العلم العقلي على الكنيسة، وحطم هؤلاء العلماء سلاسل التقليد الديني، وزيفوا ما كانت تؤمن به من نظريات فلكية وجغرافية، وما اشتملت عليه كتبهم من آراء بشرية منتقدين لها في صرامة وصراحة^(٢)، وعلى المنهج العقلي والطبيعي نشأت حضارة مادية بعيدة عن الوحي، حققت ما حققت لأتباعها من التقدم المادي، أقامت ناطحات السحاب، وأجرت مراكب الفضاء، وغمرت الأسواق بألوان الصناعات، وجلبت للناس الرفه والترف... لكنها عجزت على قوتها أن تُدْخِل على مشاعر الناس السكينة والطمأنينة، وأن تقيم علائق الناس على المودة والرحمة، بل أنها أثارت في نفوسهم القلق والحيرة، وسكبت في قلوبهم الأثرة والأنانية، ودفعتهم إلى العدوان والتسلط على الناس^(٣)، تلك ضريبة العلم المادي إذا نشأ بعيدا عن الدين.

الصراع بين الدين والعلم في أوروبا:

(١) قضية الألوهية بين الفلسفة والدين لعبد الكريم الخطيب / ٥٠.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن المودودي / ١٩٢.

(٣) قضية الألوهية بين الفلسفة والدين لعبد الكريم الخطيب / ٥١.

حدث صراع مرير في القرون الوسطى بين رجال الكنيسة الكاثوليكية في روما ورجال العلم التجريبي نتيجة أبحاثهم واكتشافاتهم التي بينت بطلان بعض الآراء في المسائل الفلكية والجغرافية التي أضفت الكنيسة عليها صفة الدين، وجعلتها جزءاً من النصوص المقدسة التي يمنع نقضها أو نقدها أو مناقشتها، ورأت أن في نتائج هذه الأبحاث والكشوف جرأة على الكنيسة التي كانت تمسك بزمam السلطة على كافة أصقاع أوروبا، وهما لتعاليمها؛ لذا نظرت إلى هذه الحركة العلمية القائمة على العقل بحذر وتوجس خوفاً على سلطانها ومكانتها، لكن الصراع ما لبث أن تفاقم بين الطرفين منعكسا سلبا على العلاقة بين الدين والعلم، فقد قامت الكنيسة بهجمة شرسة على العلماء، فكفرتهم وبدعتهم واستحلت دماءهم، وأنشأت لمعاقبتهم محاكم التفتيش، فعلى سبيل المثال حكمت محكمة التفتيش في مدة لا تزيد على ثمانية عشر عاماً من ١٤٨١م - ١٤٩٩م على عشرة آلاف ومائتين وعشرين شخصاً بالحرق أحياء فأحرقوا، وعلى ستة آلاف وثمانمائة وستين بالشنق فشنقوا، وعلى سبعة وتسعين ألفاً وثلاثة وعشرين شخصاً بعقوبات مختلفة فنفذت^(١)، ومن العلماء الذين اضطهدتهم الكنيسة (غاليلو) بسبب قوله بأن الأرض تدور حول الشمس، وأن هناك كواكب سياراً تزيد عن السبعة التي ذكرت في الكتب المقدسة، فقد اعتبروا ذلك نوعاً من الإلحاد، فسجن سنة ١٦١٥م بناءً على حكم صدر من محكمة التفتيش في روما، مما اضطره إلى التراجع عن آرائه، وأقصر على أن يعلن توبته وهو جاث على ركبتيه أمام (البابا أوربان الثاني) قائلاً: ألعن واحتقر خطأ القول وهرطقة الاعتقاد بأن الأرض تدور^(٢)، وأفلت (كوبرنيكس) من قبضة الكنيسة بتدارك الموت له عقوبة على قوله بكروية الأرض، وطاردت الكنيسة (برونو) لتقريره كروية الأرض ودورانها إلا أنه قبض عليه بالبندقية، وسجن بروما، ثم حرق حياً^(٣).

(١) الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية لمحمد عبده / ٣٦.

(٢) الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية لمحمد عبده / ٧٩-٨٠.

(٣) موقف الإسلام والكنيسة من العلم للدكتور عبد الله المشوخي / ١٤٠.

ومن أهم الأسباب التي أدت إلى هذا الصراع وهذه العداوة بين رجال الدين والعلم في أوروبا ما يلي:

(١) تعسف الكنيسة وتسلطها على رجال العلم والفكر: هذا التعسف كان امتدادا طبيعيا لما كانت تمارسه الكنيسة من طغيان على الناس، فقد حاسبت الناس على معتقدات قلوبهم، وعلى أفكارهم وآرائهم، واحتكرت العلم في مجامعها، وهيمنت على الفكر البشري بحجة أنها تمتلك الحقيقة العلمية حتى في مجال البحث المبني على الحس والتجربة، وبهذا الصنيع أقحمت الكنيسة نفسها في متاهات كانت غنية عن دخولها، وفتحت على نفسها بابا من النقد العلمي اللاذع^(١)، ومما ساعد على سلوك هذا المنهج أن الكنيسة لم توفر لرجال لديهم القدرة على التوفيق بين النصوص المقدسة وبين آراء العلماء ونظرياتهم^(٢)، ولم تهتد إلى مراجعة هذه النصوص، وتهذيبها مما خالطها من آراء بشرية، لم تفعل ذلك ظنا منها أنها قادرة على كبت ما يخالفها استنادا على ما كانت تملكه من سلطة وطغيان، فكان ذلك سببا في تفاقم الخلاف، ومناداة الطرف الآخر بعزل الكنيسة عن الحياة، وإقامتها على المنطق العقلي والتفكير الحر (حتى أصبح الاعتقاد بأن كل خطوة يخطوها العلم ترفع الإنسان فوق نفسه درجة، وتنزل الإله من عليائه بنفس القدر)^(٣).

(٢) تبني الكنيسة لبعض النظريات الفلكية والآراء الجغرافية: هذا التبني أدى إلى تسرب الخرافات الوثنية والمعلومات البشرية إلى كثير من تعاليم الكنيسة التي جعلتها عقائد إلهية، تدخل في صلب الدين وصميمه، وعدت الكفر بها كفرا بالوحي والدين^(٤)، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل فرضت على الناس قبول ما تبنته من آراء وأفكار ونظريات، ومنعت نقدها أو تصحيحها، أو تبني أي قول

(١) العلمانية للدكتور سفر الحوالي / ١٤٧.

(٢) دراسات في الثقافة الإسلامية للدكتور علي السالوس وآخرين / ٦٣.

(٣) منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب / ٨٩-١٢٥.

(٤) العلمانية للدكتور سفر الحوالي / ١٤٧.

يخالفها، لذا كما ذكر (جوستاف جرونياوم) (لم يكن بين يدي
أوساط الناس في العالم المسيحي اللاتيني إلا معلومات خالية من
الضبط والدقة)^(١)، فكان من أشهر ما تبنته الكنيسة واحتدم حوله
الخلافا القول بأن الأرض عبارة عن معين منبسط تحيط به أربعة
بحار، وأن الأرض ثابتة، ورفض القول بجاذبية الأرض لأن فيه
انتزاعا لقوة التأثير من الله عز وجل إلى قوة مادية الخ^(٢).

(٣) تعنت الطرفين في التمسك بآرائهما: أدى تمسك الكنيسة ببعض
الآراء، وإنكارها بعض الحقائق العلمية إلى الخصومة، كما أدى
تسرع بعض العلماء إلى إنكار بعض الحقائق العلمية التي قررها
الدين وتسخيفها، ولا ريب أن ذلك من التكذيب الذي لم يحط
الإنسان بعلمه، أو لم يأت تأويله وكشفه^(٣)، فكان من الأحرى أن
يحترم كل طرف الآخر، وأن يتم استيعاب الجديد من العلم بعيدا
عن التعصب للرأي أو الانسياق مع الهوى.

(٤) اختلاف المنهج العلمي: أدى المنهج العلمي الجديد في أوربا القائم
على التجربة والبرهان العملي إلى نتائج سلبية، دفعت الباحثين على
اعتبار الغيبيات من الخرافة؛ إذ لا يؤمنون إلا بالمحسوس
والمشاهد، فالله تعالى والملائكة والجن عندهم أشباح خرافية،
وأهوال اليوم الآخر أو هام زائفة، وقصص الماضيين من الأنبياء
والمرسلين عليهم السلام أساطير ما لم تكشفها الحفريات والآثار^(٤)
إلى غير ذلك، فكان في هذا المنهج هدم لتعاليم الأديان وليس
للنصرانية فحسب، ونقض لما يؤمن به التجريبيون من مرور
الطاقة الكهربائية بالأسلاك المعدنية، وهي لا ترى، ومن الجاذبية
إلى الأرض وهي لا ترى، ومن الروح التي تحفظ الحياة للجسد
وهي لا ترى.

(١) حضارة الإسلام، ترجمة عبدالعزيز جاويد/٦٩.

(٢) موقف الإسلام والكنيسة من العلم للدكتور عبد الله المشوخي / ١٣٢، ١٤٠.

(٣) دراسات في الثقافة الإسلامية للدكتور علي السالوس/٦٦.

(٤) دراسات في الثقافة الإسلامية للدكتور علي السالوس/٦٧.

إن حقيقة هذا الصراع لم تكن بين الدين بصيغته الإلهية النقية، وإنما بصيغته المحرفة التي كانت عليها النصرانية في تلك الفترة من الزمن، وأن ما حققه العلم من انتصار كان في المواقع التي انتصر فيها العقل واليقين على الخرافة والوهم، إن الحق من الطرفين هو الذي انتصر فلو كانت تعاليم الكنيسة حقا خالصا، والعلم بمنهجه الجديد في أوروبا يقينا مجردا لما حدث هذا الصراع، وإنه من المؤسف أن جناية رجال الدين على الحقيقة العلمية كانت أشنع من جناية أنصار المنهج الحسي التجريبي عليها، وأن كلا الطرفين كان مسؤولا عن النتائج المؤسفة لهذا الصراع^(١).

موقف الإسلام من العلم:

الإسلام هو دين العلم، فقد كانت أول آيات كتابه الكريم نزولا هي أمر بالقراءة، قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾ كما أن الله تعالى أقسم فيه بالقلم تعظيما له، قال تعالى: ﴿بِالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١)﴾ وفي هذا دلالة عظيمة على احتفاء الإسلام بالقراءة والكتابة لما لهما من أهمية بالغة في تقييد العلم والمعرفة وضبطهما، كما أن الله رفع درجات العلماء تقديرا لمكانتهم، وتعظيما لشأنهم ؛ يقول سبحانه: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (وما ذاك إلا لكون العلم نعمة إلهية يخص الله بها من يشاء من عباده، قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ وقال (ﷺ): (العلماء ورثة الأنبياء)^(٢).

ومصدر العلم هو الله تعالى، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾ وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ

(١) العلمانية للدكتور سفر الحوالي / ١٤٦.

(٢) رواه الترمذي وأبو داود.

كُلَّهَا ﴿٥﴾ وقال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ وقال تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمُ﴾ ﴿٥﴾ إلا أن طريق الإنسان إلى هذا العلم بحسبه، فصنف منه يصل إليه عن طريق الوحي، وهو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾، والصنف الآخر يصل إليه عن طريق العقل بالتفكير والملاحظة والتأمل والرصد والتجربة والسير في الأرض والنظر في خلق الله للبحث عن سننه الكونية، قال تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ ﴿٦﴾ وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿١٣﴾.

والعلم الصحيح هو ما كان مبنيًا على مصادر صحيحة أو تفكير صحيح أو تجارب ثابتة بعيدا عن الجهل والظن والكذب، قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١١١﴾.

وعموما فإن العلم في الإسلام فريضة واجبة، يتقرب بها إلى الله تعالى، وطريق من طرق العبادة يوصل إلى الجنة، ﴿١﴾ (طلب العلم فريضة على كل مسلم) (١)، وقال (عليه السلام) (من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم) (٢)، وبناء على هذا الحكم اعتنى علماء المسلمين بعلوم الدين بيانا وتوضيحا واستنباطا مستنديين في فهمهم على كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، واشتغلوا بها بحثا ودراسة وتعليما، فأنشأوا المدارس، وأقاموا حوانيت الوراقين التي كانت أسواقا للعلماء

(١) رواه ابن ماجه.

(٢) رواه الترمذي وأبو داود.

ومناظراتهم، وشيدوا المكتبات لخدمة العلم، وتيسير الاطلاع على ما ألف من علوم.

ولم يكن الاهتمام مقصوراً على علوم الدين بل شمل العلوم التي تعتمد على الحس والتجريب، فإن الحس والتجربة يعدان أساسين لهذا الصنف من العلوم؛ فقد أكد ابن حزم في كتابه (التقريب في حدود المنطق) أن الحس أصل من أصول العلم، وأن ابن تيمية بين في كتابه نقد المنطق أن الاستقراء هو الطريقة الوحيدة الموصلة إلى اليقين^(١)، فالمنهج التجريبي وليد الفكر الإسلامي وليس من ابتكار الفكر الغربي، يقول (بريفولت) في كتابه (بناء الإنسانية): (ليس لروجر بيكون ولا لسميه الذي جاء بعده الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوروبا المسيحية)^(٢).

وكان من مظاهر الاعتماد على الحس والتجريب في العلم الطبيعي عناية علماء المسلمين بعلم الفلك ومعرفة طوابع النجوم، وذلك لمعرفة منازل الهلال وأوقات الصلاة والصيام والحج، ولهذا الغرض أنشئت المدرسة الفلكية ببغداد، ويعد (البَتَّاني) أحد عشرين عالماً فلكياً في العالم، وألف البيروني كتاب (الاستيعاب في وضع الاسطرلاب)، وقد استطاع المسلمون دراسة حركة الشمس وانحرافها، ومعرفة الانحراف القمري الثالث الذي عد اكتشافاً جديداً، كما اعتنى علماء المسلمين بالرحلات الجغرافية، فكتبوا عن المسالك وطرق القوافل والبريد، ووصفوا الجبال والبحار والأنهار، ورسم (الأدريسي) خريطة اشتملت على أماكن لم تعرف إلا من قريب. كما اهتم علماء المسلمين بعلوم الرياضيات فكان (أبو بكر الخوارزمي) أول من ألف في علم الجبر، له كتاب (الجبر والمقابلة)، وألف ابن الهيثم كتاب (تربيع الدائرة) وكتاب (الأشكال الهلالية)، وألف البيروني كتاب (استخراج الأوطار)، وفي علم الفيزياء وضع (ابن الهيثم) كتابه (البصريات) الذي أسسه على دراسة تجريبية، وفي علم الكيمياء كان المسلمون أول

(١) تجديد الفكر الديني في الإسلام لمحمد إقبال / ١٤٨.

(٢) تجديد الفكر الديني في الإسلام لمحمد إقبال / ١٤٩.

من استعمل طرق التصعيد والتبلور والتذويب والتصفية لاستخراج
المواد

أو مزجها، وأول من صنع المراهم والدهانات، وأول من حضر
الحوامض مثل تحضير زيت الزاج (حامض الكبريتيك)، وفي علم
الطب بلغ علماء المسلمين درجة من التفوق والريادة، فقد بقيت كتبهم
تدرس في جامعات الغرب إلى عهد قريب، ومن مشاهير أطباء
المسلمين (الرازي) وله كتاب (الحاوي) تحدث فيه عن صناعة
الطب، وكتاب (المنصوري) الذي اشتمل على مباحث التشريح
والأدوية والسموم والجراحة، ومن عباقرة الطب (ابن سينا) الذي ألف
كتاب (القانون) الذي كان محط إعجاب في جميع الأوساط العلمية إلى
اليوم، وقد ترجم إلى عدة لغات، ومن الأطباء المشهورين: (جابر بن
حيان) و (الزهر اوي) و(ابن النفيس) وغيرهم، وبرز المسلمون كذلك
في علم الصيدلة، فقاموا بفن المستحضرات كتحضير الأشربة واللحوق
واللزقات، وألف (ابن جزلة) كتاب (منهاج البيان فيما يستعمله
الإنسان) جمع فيه أسماء الحشائش والعقاقير^(١).

إن انجازات علماء المسلمين في العلوم التجريبية لا يمكن
حصرها؛ فقد تمكنوا من تطوير العلوم التي ورثوها من الأمم الأخرى
كعلوم الفلك والطب؛ بل أنهم ابتكروا علومًا جديدة كعلمي الجبر
والكيمياء، واعترف لهم بهذا الفضل علماء أوروبا الذين لا يزالون
يكتشفون من كنوز علومهم وأسرار معارفهم ما يستفيدون منه في
تحسين أمورهم وزيادة معرفتهم فهذا (داربر) في كتابه (التنازع بين
العلم والدين) يشيد بعلماء المسلمين وأنهم كانوا متبعين في أبحاثهم
الأسلوب العملي التجريبي بعد أن تحققوا من أن الأسلوب العقلي
النظري لا يؤدي إلى التقدم، وأن الوصول إلى الحقيقة في هذه العلوم
لا يكون إلا بمشاهدة الحوادث ذاتها؛ لذا كان شعارهم في أبحاثهم
الأسلوب التجريبي والعمل الحسي؛ فإنهم كانوا يعدون الهندسة والعلوم
الرياضية أدوات لعلم المنطق، وقد يلاحظ المطالع لكتبهم العديدة على
الميكانيكا والإيدروستاتيك (علم موازنة السوائل وضغطها على جدران

(١) دراسات في الحضارة الإسلامية للدكتور إبراهيم الشريف/ ١٨٦-١٨٧، تاريخ

الحضارة الإسلامية في الشرق/ ٢٠٩-٢١٦، ودراسات في الثقافة الإسلامية

للدكتور علي السالوس وآخرين ٥٥-٥٧.

أوعيتها) ونظريات الضوء والإبصار بأنهم اهتموا إلى حلول مسائلهم عن طريق التجربة والنظر بواسطة الآلات. إن هذا المنهج هو الذي قاد المسلمين لأن يكونوا أول واضعي علم الكيمياء، وأول من اكتشف آلات التقطير والتصعيد والإسالة والتصفية الخ، وهو الذي جعلهم يستعملون في أبحاثهم الفلكية الآلات المدرجة والسطوح المعلمة والاسطرבלات (آلات قياس أبعاد الكواكب)، وبعثهم على استخدام الميزان في العلوم الكيمائية الخ، وهو الذي جعلهم يترقون في الهندسة وحساب المثلثات، وهم بهم لاكتشاف علم الجبر، ودعاهم لاستعمال الأرقام الحسابية الهندية، إن ذلك غيضا من فيض، يصعب حصره والإلمام به، وكان لنتائج هذه العلوم أثر جلي في تطوير فنون الزراعة في أساليب الري والتسميد وتربية الحيوانات وإدخال زراعة الأرز والسكر والبن، وانتشار المعامل والصنائع كنسج الصوف والحريز والقطن وإذابة المعادن وسبكها وتهذيبها^(١)، وتشيد المباني والقلاع والقصور وزخرفتها وتهويتها وتدفنته. بطريقة هندسية رائعة.

(١) الإسلام في عصر العلم لحمد فريد وجدي ٤٤٥-٤٥٤ .